محددات علاقة القرآن الكريم بالكتب الإلهية السابقة ومقاصدها وأبعادها المنهجية *

إعداد

أ.د. زياد خليل الدّغامين**

ملخص البحث

تناولت هذه الدراسة موضوع علاقة القرآن الكريم بالكتب الإلهية السابقة، فقد وردت آيات عديدة تؤسس في تصوّر المسلم، وغير المسلم علاقة وطيدة تربط الوحي الخاتم المنزل على محمد ﷺ بجميع ما تقدّمه من وحي تنزّل على الأنبياء السابقين، وتحدّد مقاصد تلك العلاقة، أو تبيّن موقع القرآن من الكتب السابقة: التوراة والإنجيل. على وجه الخصوص. وموقع محمّد ﷺ بين الأنبياء والمرسلين، وما يترتب على ذلك من أبعاد تحدّد منهج التعامل في نصوص الوحي عموما.

إنّ التصديق والتفصيل والهيمنة محدّدات ثلاثة حكمت علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة، وكشفت الدراسة عن مقاصد هذه العلاقة وغاياتها، ووضّحت الأبعاد المنهجية لعلاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة.

* أجيز للنشر بتاريخ ٢٠٠٧/٣/٢٦م.

** أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة آل البيت – المملكة الأردنية الهاشمية

لقد ظهر من أبرز النتائج التي توصّلت إليه الدراسة أنّ الإخبار بتصديق القرآن الكتب السابقة كان بهدف تحقيق مضمونها وإحياء تعاليمها في واقع الحياة في ضوء معيار القرآن، بحيث يكون للمصدّق- وهو القرآن الكريم- صفة المرجعية والحاكمية فيما يتصل بالله الخالق، والأنبياء والرسل، والكتب المنزلة، وعالم الغيب. وكذلك فيما يتصل بالكون والحياة والإنسان من تصوّرات وعقائد.

مُقَدِّمَة:

لقد كان لعلاقة القرآن الكريم بالكتب الإلهية السابقة في مفهوم بعض المفسرين والباحثين الأثر السلبي على منهج فهم القرآن الكريم والتعامل معه، من حيث الثقة الزائدة التي أبدوها تجاه تلك الكتب، الأمر الذي أدّى إلى إغراق المادة التفسيرية بالإسرائيليات التي نقلت لتأييد إخبارات القرآن الكريم عن النبوّة وقصص السابقين، بل دافع بعض المفسرين عن ذلك دفاعا حارّا كبرهان الدين البقاعي صاحب نظم الدّرر؛ لأن تلك الروايات تعزّز ما لدينا من نصوص الوحي. ومن حيث المساواة التامّة بين القرآن وغيره من الكتب مما يجعلها معه في مستوى واحد من القوّة والمرجعية. كذلك، تجلّى هذا الأثر السلبي في إشاعة بعض الأفكار التي تريد أن تضع حدّا فاصلا بين الإسلام وما تقدّمه من أديان دون معرفة حقيقة العلاقة التي تربط الرسالة الخاتمة وما تقدّمها من رسالات؛ لتتخذ المواقف الإيجابية إزاء ظاهرة حوار الأديان وتعاونها في قضايا تخدم الإنسان وتحقق مصلحة الإنسانية، وإزاء معرفة أبعاد الخطاب القرآني لتلك الأديان وأصحابها.

لقد تحدّد في أذهان كثيرين أنّ العلاقة الوحيدة التي تربط القرآن بما سبقه هي "النسخ" لا غير، فهو ناسخ لجميع الشرائع السابقة، وجميع الأحكام التي جاءت بها تلك الكتب، لكن يبدو أنّ العلاقة أعمق من ذلك وأشمل، ولها أبعاد تملي قواعد ضرورية في منهج التعامل مع تلك الكتب، أو مع هذا الكتاب الذي ختمت به رسالات الله تعالى إلى الأنبياء جميعا.

لقد وردت آيات عديدة تؤسس في قاعدة الذهن الإنساني علاقة وطيدة تربط الوحي الخاتم بجميع ما تقدّمه من وحيٍّ تنزل إلى الأنبياء والمرسلين، وتحدّد مقاصد تلك العلاقة، وتبيّن موقع القرآن من الكتب السابقة، وموقع محمّد ﷺ بين الأنبياء والمرسلين، وما يترتب على ذلك من أبعاد تحدّد منهج التعامل مع نصوص الوحي.

لذلك، تأتي هذه الدراسة لتشكل لبنة تضاف إلى الجهود الساعية لتوضيح طبيعة تلك العلاقة، ولتبيّن مقاصدها وأبعادها المنهجية، وستقع في خمسة مباحث، يتبعها خاتمة تشتمل على أهمّ ما توصلت إليه من نتائج.

المبحث الأول: محدّد التصديق: مفهومه واتجاهاته وأساليب وروده.

المبحث الثاني: محدّد التفصيل وعلاقته بالكتب السابقة.

المبحث الثالث: محدّد الهيمنة وعلاقته بالكتب السابقة.

المبحث الرابع: مقاصد علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة وغاياتها.

المبحث الخامس: الأبعاد المنهجية لعلاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة.

الخاتمة: وتتضمن نتائج الدراسة.

المبحث الأول
محدّد التصديق: مفهومه واتجاهاته وأساليب وروده

ترتكز علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة على محدّدات رئيسة تجلّت في بيان القرآن والكريم وخطابه، وأوّل هذه المحدّدات هو محدّد التصديق الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في ثلاث عشرة آية، منها ستّ آيات مكية، وهو المحدّد الرئيس الذي يحكم علاقة القرآن الكريم بما تقدّمه من كتب.

المطلب الأول
مفهوم التصديق

ذكر الراغب أنّ الصدق أصله في القول ماضيا كان أو مستقبلا، وعدا كان أو غيره، ولا يكون في القول إلا في الخبر دون سائر الكلام، وقد يكون بالعرض في غيره من أنواع الكلام كالاستفهام والأمر والدعاء. والصّدق مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معا، ومتى ما انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقا تامّا [١].

ويستعمل التصديق في كلّ ما فيه تحقيق، يقال: صدقني فعله وكتابه، واستشهد لذلك بقوله تعالى:﴿ **وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾(البقرة:٨٩)[٢] والمقصود من التحقيق إزالة ما علق بالخبر السابق من شوائب بفعل التأويل، أو التحريف. وعلّل ابن عاشور تفسير التصديق بالتحقيق بأنّ

(١) انظر: الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات (بلا تاريخ)، دار المعرفة، بيروت. ص ٢٧٧.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٧٨.

التصديق حقيقة في إعلام المخبَر بأن خبر المخبر مطابق للواقع إما بقوله صدقت أو صدق فلان، وإما بأن يخبر الرجل بخبر مثل ما أخبر به غيره فيكون إخباره الثاني تصديقا لإخبار الأول. وأما إطلاق التصديق على دلالة شيء على صدق خبر ما فهو إطلاق مجازي، والمقصود وصف القرآن بكونه مصدقا لما معهم بأخباره وأحكامه[٣]؛ لأهمية هذه الأحكام والأخبار في حياة الناس وضرورتها؛ لأنّ إخبار اللاحق بصدق السابق يؤكد أهمية هذا التصديق في موضوعاته ومقاصده وغاياته.

في ضوء ذلك، يمكن القول: إنّ

تصديق القرآن الكريم لما تقدّمه من كتب يعني أنّه مخبر بصدقها، ومحقّق لمضمون ما جاءت به من خير وهداية، على وجه يقتضي الموافقة، بهدف بعث الحياة في تعاليم الوحي في واقع الإنسان، وليكون للمصدق صفة الحاكمية والمرجعية فيما يتعلق بمضمون ذلك التصديق وغاياته.

المطلب الثاني
اتجاهات التصديق وأساليب وروده

وردت الآيات المثبتة للتصديق في سياق الجدل مع صنفين من المكذبين، أوّلهما: أهل الكتاب، وثانيهما: مشركو العرب، ويظهر أنّ السّبب في ذلك يعود إلى الحسد من قبل أهل الكتاب، والاستخفاف واتّباع أهل الكتاب من قبل مشركي العرب اغترارا منهم بصنيعهم، واقتفاء لأثرهم.

---

(٣) انظر: محمد الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير (١٩٧٢)، الدار التونسية للنشر، تونس. ج ١، ص ٤٥٩.

لقد امتدّت آفاق هذا المحدّد لتشمل علاقة الرسوّل محمّد ﷺ بما قبله من الأنبياء والرسل والكتب المنزلة. وعلاقة الكتاب بما سبقه من كتبٌ منزّلة، ليلقي التصديق بظلاله الوارفة على شخصية الرسول المصدّق لمن قبله من الأنبياء والرّسل، وعلى شخصية الرسول المصدّق لما تقدّمه من كتب إلهية. ويلقي بها على الكتاب المصدّق لما تقدّمه من كتب إلهية، فهذه ثلاثة اتجاهات توضّح مسارات التصديق.

ويلاحظ هنا أنّه لا توجد نصوص من القرآن الكريم تثبت تصديق الكتاب للرسول الموحى إليه، إلا في حقّ القرآن الكريم الذي كان الآية العظمى على صدق نبوّة محمّد ﷺ فهو عمادها وبرهانها، وهو رسالته وشريعته ومعجزته البيّنة الظاهرة القاهرة، قال تعالى:" أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (العنكبوت:٥١) ردّا على سؤالهم الآيات، وطلبهم المعجزات، بينما انفصلت الرسالة عن المعجزة في رسالات الأنبياء السابقين فكانت من غير جنسها[٤] وهذا يعني أنّ تميّز القرآن الكريم عن الكتب السابقة كان من حيث إنّه هو معجزة محمّد ﷺ، وأنّه هو رسالة محمّد ﷺ في الوقت نفسه، فاتحدت المعجزة والرسالة في شيء واحد، ممّا أكسب معجزته ورسالته الخلود، لتكون حجّة الله على كل إنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهذا تفصيل لهذه الاتجاهات:

---

(٤) راجع ما كتبه العلامة عبد الرحمن بن خلدون في: المقدّمة (بلا تاريخ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ص ٩٣-٩٥.(المقدّمة السادسة). وانظر: عدنان زرزور، بين مفهوم المعجزة وإعجاز القرآن، حولية كلية الشريعة، جامعة قطر، العدد ١٧، لسنة ١٤٢٠هـ، ص ١٩.

الاتجاه الأول: الرّسول المصدّق لمن قبله من الرّسل:

ما من أمّة إلا خلا فيها نذير، وما من رسول إلا جاء يدعو إلى العقيدة نفسها التي دعا إليها من سبقه من الرّسل؛ لكن، مع ذلك لا نجد في القرآن الكريم ذكرا أو تصريحا بتصديق كلّ رسول لمن تقدّمه من الرّسل؛ وذلك لسبب جوهري رئيس يتمثّل في خصوصية الرّسالة التي بعث بها كلّ رسول، أعني: خصوصية المخاطبين، وانفكاك العلاقة الزمانية والمكانية بين تلك الأقوام، ممّا يوحي بشيء من عدم التواصل فيما بينهم، أو معرفة كلّ قوم بشأن الأقوام الأخرى وأحوالهم، فالأمّة الخاتمة لم تقف إلا على ذكر خمسة وعشرين منهم، هذا فضلا عن اختلاف الشرائع فيما بينها. ولا يبدو أنّ هناك حكمة في تصديق النبيّ النبيّ، وليس لنا أن نتساءل فنقول: لمَ لم يصدّق عيسى نوحا عليهما السلام؟ وقد لا يترتب على هذا التصديق حكمة تنعكس آثارها المعرفية والعملية على بني إسرائيل لعدم تأهلهم للقيام بمهامّ معينة، هذا في الوقت الذي يصرّح القرآن الكريم في موطن وحيد أنّ محمّدا ﷺ قد صدّق جميع الرّسل. لقد أرسل كل نبيّ إلى قومه خاصّة، أمّا محمّدا ﷺ فقد أرسل إلى الناس كافّة، يقول سبحانه:﴿**بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ**﴾(الصّافات:٣٧) ردّا على زعم المشركين الذين قال الله تعالى عنهم:﴿**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ**﴾ (الصّافات:٣٦) فقد جاء الردّ أعظم ممّا يظنون أو يتوهمون، إنّه نبيّ ختم بالصّدق على جميع ما جاء به المرسلون" الذين هم أعقل الأمم، وأحكم الحكماء، فمتى يتفقون على قول مصدره الجنون"[٥] إنّها مسؤولية هذا النبيّ عن جميع ما تقدّمه من الأنبياء والمرسلين بما أشبه أن يكون الوصيّ المستأمن على ما جاؤوا به للناس، وما تركوه من عقيدة وشريعة.

(٥) محمّد جمال الدّين القاسمي؛ محاسن التأويل (١٩٧٨)، دار الفكر، بيروت. ج ١٤، ص ١٠٣.

أمّا ما ذهب إليه كثير من المفسرين من أنّ يحيى عليه السلام سيأتي مصدّقا برسول الله عيسى عليه السلام، وهو المقصود بـــ "كلمة الله" في قوله تعالى:﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾ (آل عمران:٣٩) فلا دليل عليه؛ فقد ذهب أبو عبيدة أنّ المراد بـــ" كلمة" أنّها كتاب من الله تعالى[٦] ولو سلّمنا جدلا بما قاله المفسرون، فإنّ عيسى عليه السلام لم يبعث إلى يحيى عليه السلام حتى يكون أوّل من يؤمن به، ويحيى نبيّ مثله، قال تعالى: ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** ﴾(مريم: ١٢) وهو مبعوث قبله، فإنّ عيسى هو آخر أنبياء بني إسرائيل، ولم تكن آيـــة عيـــسى عليه السلامأن يصدّقه يحيى بن زكريا عليهما السلام!

الاتجاه الثاني: الرّسول المصدّق لما سبقه من كتب إلهية:

جاء هذا التصديق على أنموذجين، تمثل الأول في تصديق عيسى عليه السلام للتوراة، وهو تصديق مخصوص. وتمثل الثاني في تصديق محمّد ﷺ لما مع بني إســـرائيل من الكتاب، أي: وحي الله تعالى.

١. تصديق عيسى عليه السلام للتوراة:

لم يرد ذكر تصديق الكتب السابقة في الآيات المدنية إلا في سياق إقامة الحجة على بني إسرائيل، فقد ورد أنّ عيسى عليه السلام جاء مصدّقا بالتوراة في ثلاثة مواضع، ففي سياق خطاب عيسى عليه السلام لبني إسرائيل بدلائل نبوّته، يقول سبحانه:﴿**وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**

(٦) انظر: محمد بن عمر الرازي؛ مفاتيح الغيب (١٩٨١)، دار الفكر، بيروت. ج ٨، ص ٣٨.

فاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (آل عمران:٥٠) ليكون التصديق واحدا من هذه الدلائل، وهو تأكيد وتحقيق لما جاءت به التوراة، مع بعض التخفيف من شرعة الإصر التي فرضت عليهم بظلمهم، فأحلّ لهم بعض ما كان محرّما عليهم، قال ابن عاشور:" المخبر بصدق غيره وأدخلت اللام على المفعول للتقوية للدلالة على تصديق مثبت محقق أي مصدقا تصديقا لا يشوبه شك ولا نسبة إلى خطأ... ومعنى قوله "لما بين يدي"ما تقدم قبلي؛ لأن المتقدم السابق يمشي بين يدي الجائي فهو هنا تمثيل لحالة السبق وإن كان بينه وبين نزول التوراة أزمنة طويلة، لأنها لما اتصل العمل بها إلى مجيئة فكأنها لم تسبقه بزمن طويل"[٧] ويا ليت العمل بها ظل قائماً إلى مجيء عيسى عليه السلام، إذن لما وجد عيسى منهم عنتا ولا صدودا. إنّ تصديق عيسى عليه السلام قد تطلّب إعادة بناء الخطاب الديني، أو خطاب الوحي بعدما خفت نوره، وضعف أثره في نفوس الناس وسلوكهم، بل اضطرب مضمونه بفعل الأهواء التي عبثت به.

وفي سياق الحديث عن التوراة وما تضمنته من أحكام، يقول سبحانه:﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ**﴾(المائدة:٤٦) هذا التصديق جاء على لسان عيسى مع أنّه أرسل أنبياء كثيرون قبله إلى بني إسرائيل كلهم قد حكم بالتوراة، كما في قوله تعالى:﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ...**﴾ الآية (المائدة:٤٤) فما معنى أن يكون عيسى هو المصدّق؟ والجواب أنّ عيسى عليه السلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل، لتأخذ الرسالة

(٧) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣، ص ٢٥٣.

الإلهية بعده طابعا عالميا، ويتحول الخطاب فيها إلى خطاب شامل للعالمين غير خاصّ بفئة من الناس، فتصديقه بها يقتضي إحياء معاني التوراة التي ماتت في نفوسهم، وتعطّلت في حياتهم، واندرست معالمها بتأويلاتهم وتحريفاتهم. إنّها إعادة تحقيق تلك المعاني لتوافق الوجه الذي نزلت عليه بما يوحى إلى عيسى عليه السلام، فالتصديق –على هذا– بات ضرورة من ضرورات بعثة عيسى عليه السلام، وكأنّ عيسى يهيّئ الأجواء تمهيدا لبعثة محمّد ﷺ التي لم يفصلها عن بعثة عيسى سوى بضعة قرون، وهو ما تأكد في الآية الثالثة، وهو قوله تعالى ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾(الصف:٦)

لقد بني التصديق في الآيات الثلاث على الحال، فكأنّ حال عيسى عليه السلام مع بني إسرائيل هو التصديق والموافقة لا غير، هذا التصديق يؤصّل رسالة التوراة، ويجدّد معالم خطابها، ويذكّر بهداياتها؛ ليتجسّد دليل العناية الإلهية بالإنسان في هذه الحياة، ولئلا يتيه في ركام الضلالات والخرافات.

وسرّ هذا التصديق للتوراة على وجه الخصوص أنّها آخر كتاب من كتب الشرائع نزل قبل القرآن، وأما ما جاء بعده فكتب مكمّلة للتوراة ومبيّنة لها، مثل زبور داوُد وإنجيل عيسى عليهما السلام[8] وأمّا ما قبل التوراة فهي صحف تتناسب مع متطلبات الحياة الخاصّة بتلك الأزمان، كصحف إبراهيم عليه السلام.

(٨) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٦، ص ٦٠.

٢. تصديق محمّد ﷺ لما مع بني إسرائيل:

وردت في الزهراوين آيتان – توجّه الخطاب فيهما إلى أهل الكتاب – تثبتان أنّ محمّدا ﷺ جاء مصدّقا لما مع أهل الكتاب من وحي ورسالة. والزهراوان أعظم سورتين تحدّثتا عن أهل الكتاب. وردت الأولى في قوله تعالى:﴿**وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة:١٠١) وتصديق النبيّ لما معهم يعني –على ما قاله الجمل– أنّه " قرر صحتها، وحقق حقيقة نبوّة موسى بما أنزل عليه، أو من حيث جاء على وفق ما نعت له فيها"[٩] وهذا غير دقيق من حيث إنّ الذي معهم ليس مقصورا على التوراة، وإن كانت أهمّها، فقد خوطبوا –كذلك– بزبور داوُد وإنجيل عيسى. وذكر الرازي أنّ معنى كونه مصدّقا لما معهم من حيث إنّ التوراة بشّرت بمقدم محمدﷺ، فإذا أتى محمّد ﷺ كان مجرد مجيئه مصدّقا للتوراة[١٠]، ويمكن أن يكون التصديق متجها إلى ما جاء به من حقائق تطابق التوراة الحقيقية الأصلية وتوافقها، مما يدل على أنّ مصدر هذه الحقائق هو مصدر واحد.

والآية الثانية في قوله تعالى:﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾(آل عمران:٨١) وهي واردة في سياق الحديث عن أهل الكتاب الذين قلّت فيهم الأمانة، وكثرت الخيانة، وحرّفوا الكتاب... والأرجح في المقصود بها كما ذكر الرازي أنّ

---

(٩) سليمان بن عمر الجمل؛ الفتوحات الإلهية (بلا تاريخ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ج ١، ص ٨٥.
(١٠) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٣، ص ٢١٨.

الله أخذ على الأنبياء أن يأخذوا الميثاق من أممهم بأنّه إذا بعث محمد ﷺ فإنّه يجب عليهم أن يؤمنوا به، وأن ينصروه [(١١)].

ويظهر هنا أن تصديق محمّد ﷺ يختلف عن تصديق عيسى عليه السلام الذي تعدّ بعثته امتدادا للتوراة، من حيث إنّ عيسى قد أعلن لكونه متقنا للقراءة والكتابة أنّه مصدّق للتوراة، بينما محمّد ﷺ كان أميا لا اطّلاع له على توراة موسى، ولا على زبور داوُد، ولا على إنجيل عيسى؛ لذلك لم يرد التصديق على لسانه صراحة، بل بإخبار الله تعالى، وبذلك يكون تصديقه أبلغ من تصديق عيسى عليه السلام، وأبلغ في إقامة الحجة، وأظهر في بيان دلائل نبوّته ﷺ هذا في الآية الأولى. أمّا الآية الثانية فتظهر أنّ بعثة محمّد ﷺ كانت الإعلان الصادع بأنّ النبوّة حقّ، وأنّ كلّ الذين بشروا به تحققت نبوتهم ببعثة هذا الرسول؛ ليختم بذلك على صدقهم، ويضع حدّا لكل حملات التكذيب والتشكيك في النبوّة، خاصّة تلك التي أثارها بنو إسرائيل الذين كان موقفهم كما وصف القرآن الكريم: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُون**﴾(البقرة: ٨٧).

الاتجاه الثالث: الكتاب المصدّق للكتاب:

١. تصديق الإنجيل للتوراة:

وردت آية واحدة تشير إلى تصديق الإنجيل للتوراة؛ ليجتمع في آية واحدة تصديق عيسى للتوراة، وتصديق الإنجيل لها أيضا، في قوله تعالى:﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَى**

---

(١١) انظر: مفاتيح الغيب، ج ٨، ص ١٣٧.

آثارهِم بعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِــين﴾(المائــدة:٤٦) وكأنّ الرسول والرسالة يجب أن يتحدا في تحقيق وحي الله السابق إلى موسى ، لقد كان لهذا التصديق مظهران، مظهر تجلّى في سلوك الرسول، ومظهر تجلّى في دعوة الرسول. قال ابن عاشور:" تصديق عيسى للتوراة أمره بإحياء أحكامها، وهو تصديق حقيقي. وتصديق الإنجيل للتوراة اشتماله على ما وافــق أحكامهــا، فهــو تصديق مجازي[١٢] وقد لا يكون ذلك بأحكام مطابقة وردت في الإنجيل، لكن دعوته إلى إحياء أحكام التوراة تصديق لها، وتأكيد على وحدة المصدر الذي أنزل التــوراة والإنجيل، مما يشهد بنبوّة عيسى .

إنّ آيات التصديق الواردة في سياق الحديث عن بني إسرائيل تشير إلى التمرّد الذي أعلنه أهل الكتاب من اليهود، خاصّة أولئك الذين واجهوا وحي الله المنزل إلى عيسى . وقد تمثل تمردهم هذا في المسارعة في الكفر، وتحريف الكلم عــن مواضعه، إضافة إلى كونهم سمّاعين للكذب أكّالين للسحت. لقد ألفوا وضعا مغايرا لما جاء به موسى ومخالفا له حتى أقنعوا أنفسهم بأنّ هذا الوضع هو وحي الله إلى موسى، وكأنّ تحريف التوراة كان مبكرا جدّا، فكان الإخبار بتصديق الإنجيــل للتوراة بعدما صدّق بها عيسى تذكيرا لهم، وتأكيدا وتحقيقا لوحي الله ســبحانه بصورته الناصعة البعيدة عن كل ضروب التحريف والتأويل الباطل، وأنّ وحي الله الذي جاء بنور الهداية لا يختلف بتقادم الزمان ولا بتغير المكان ما دام الإنسان هــو الإنسان.

(١٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٦، ص ٢١٩.

٢. تصديق القرآن للكتب الإلهية عامّة:

شغل تصديق القرآن للكتب الإلهية السابقة مساحةً واسعةً في بيـان القـرآن الكريم، فقد وردت معظم الآيات التي تنبّئ عن محدّد التصديق الذي يضبط علاقـة القرآن بالكتب السابقة، وينشئها على أساسه في ثلاث عشرة آية تنوعت فيها أساليب بيان هذا التصديق، فبعض الآيات ورد فيها التعبير بـ "مصدّقا لما بين يديه" وآيـة وصف فيه القرآن بالتصديق المطلق، وبعضها جاء التعبير فيه بـ "مصدّقا لما معكم" وهذا تفصيل ذلك:

أ. تصديق القرآن لما بين يديه:

وردت ثماني آيات تؤكد تصديق القرآن لما بين يديه، خمس آيـات مكيـات، وثلاث آيات مدنيات. والجامع بين هذه الآيات أنّ التصديق فيها كان لـ " ما بـين يديه" أو "الذي بين يديه"، أي: ما تقدّمه من كتب الأنبياء، وأخصّها التوراة والزبـور والإنجيل ؛ لأنّها آخر ما تداوله الناس من الكتب المنزلة على الأنبياء، وهو مصدّق الكتب النازلة قبل هذه الثلاثة، وهي صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام"(١٣).

لقد نهجت الآيات المكية أسلوبين في بيان هذا التصديق: الأسلوب التقريـري الذي يثبت التصديق على أنّه حقيقة مطلقة، والأسلوب التقريري الذي يثبت التصديق في سياق نفي أن يكون القرآن مفترى، فمن الأسلوب الأول قوله تعـالى:﴿**وَالَّـذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْـهِ إِنَّ اللَّـهَ بِعِبَـادِهِ لَخَبِيـرٌ**

(١٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٧، ص ٣٧٠.

بَصِيرٌ﴾(فاطر:٣١)، وهو حسب ترتيب النزول أول ما نزل مقررا لهـذه العلاقـة ومثبتا لها.

لقد سبق هذه الآية آيتان تستدعيان النظر: آية تبيّن تكذيب الأقـوام لأنبيائهـا، وهي قوله تعالى:﴿ **وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ**﴾(فاطر:٤) وقد تجاوز القرآن هذا التكذيب ليقرر مبدأ النبوّة، وليكون جواب القرآن عن ذلك بقوله تعالى:﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ (فاطر:٢٤) وآية تبيّن تكذيب الأقوام للبيّنات والكتب التـي جـاء بهـا الأنبياء، وهي قوله تعالى:﴿ **وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**﴾(فاطر:٢٥) ليكون جواب القرآن وتقريره ما ورد في قوله تعالى:﴿ **وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾(فاطر:٣١) فكان هذا التصديق هو لتلك البيّنات والزبر والكتاب المنير. وافتتحت الآية بالتنويه بالقرآن " بأنّه وحي من الله إلى رسوله، وناهيك بهذه الصلة تنويها بالكتاب، وهو يتضمن تنويها بشأن الذي أنزل عليه من قوله:﴿**والذي أوحينا إليك**﴾ ففي هذا مسرّة للنبي، وبشارة له بأنّه أفضل الرّسل، وأنّ كتابه أفضل الكتب... والتعريف في "الحق" تعريف الجنس، وأفاد تعريف الجزأين قصر المسند على المسند إليه، أي قصر جنس الحقّ على "الذي أوحينا إليك" وهو قصر ادّعائي للمبالغة لعدم الاعتداد بحقيّة ما عداه من الكتب".(١٤) وفي هذا إنهاء لعملها.

وفي الآية أمران يحسن التنبيه إليهما، الأول: التعبير بـ"من" في قولـه "مـن الكتاب" إن كانت بيانية، فإنّ الوحي المعلوم وهو القرآن الكريم يكون بكمالـه هـو

(١٤) المصدر السابق نفسه، ج ٢٢، ص ٣٠٨-٣٠٩.

المصدّق، وإن كانت تبعيضية، فإنّ المصدّق يكون بعض ما نزل من الوحي، وهو على قلّته قد جاء مصدّقا، أي: إنّ القرآن الكريم يلتقي مع وحي الله المنـزّل على الأنبياء السابقين مصدّقا له عند الخطوات الأولى، بل عند أول خطوة في طريق الهداية ومعرفة الله تعالى.

الثاني: التعبير بـ " الكتاب" الذي يجعل من التصديق وثيقة مكتوبة ثابتة إلى يوم الدين، فهو ليس تصديقا مؤقتا، بل ثابتا بثبات هذا الكتاب، فكأنك بقراءتك له تقرأ ما تنزّل على الأنبياء السابقين من آيات الحقّ والهداية، وهي وسيلة محفوظة إلى يوم الدّين.

ومن أسلوب التقرير -كذلك- قوله تعالى:﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾(الأنعام:٩٢)، أي: مخبر بأحقية كل المقاصد التي جاءت بها الكتب السماوية السالفة. وهذا ثناء عظيم على القرآن بأنّه احتوى على كلّ ما في الكتب السماوية، وجاء مغنيا عنها ومبينا لما فيها[١٥] وسبق الآية ذكر ثمانية عشر نبيا، ثمّ أتبعهم بذكر آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، وحديث عن هدايتهم وإيتائهم الكتاب والحكم والنبوّة، ثم قال:﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ (الأنعام:٩٠) وتخلّل ذلك حديث عن جهالات الكافرين وتكذيبهم، فكأنّ هذا التصديق يختم على رسالات الأنبياء بالحقّ والصدق.

ووصف الكتاب بأنّه" مبارك" في الآية يظهر أنّه حوى كل معاني الخير والنماء التي جاءت بها الكتب السابقة في بناء الفرد والأمّة من حيث العقيدة والخلق

(١٥) المصدر السابق نفسه، ج ٢٦، ص ٢٥.

والسلوك، بناءٌ روحيٌ كما هو بناءً فكرياً. قال الشيخ محمد رشيد رضا:" بارك فيه بما فضُل به ما قبله من الكتب في النظم والمعنى، وبما يكون من ثباته وبقائه إلى آخر عمر البشر في الدنيا(١٦).

ومنه كذلك، قوله تعالى على لسان الجنّ:﴿ **قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾(الأحقاف:٣٠) وفي " هذا تأييد للنبي بأن سخر الله الجنّ للإيمان به، وبالقرآن، فكان رسول الله مصدّقا عند الثقلين، ومعظما في العالمين، وذلك ما لم يحصل لرسول قبله"(١٧).

أما أسلوب التقرير الثاني الذي ينفي كون القرآن مفترى، والمثبت لكونه مصدّقا، فمنه قوله تعالى:﴿**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ (يونس:٣٧) وفيها تقرير باستحالة أن يكون هذا القرآن مفترى بدليل تصديقه الكتب السابقة، فإذا كان هذا القرآن مفترى، فإنّ الكتب التي سبقته هي كذلك مفتراة، ولما قام الدليل على صدق الكتب المنزّلة في السابق، لا جرم أنّ القرآن قد تبعها في النتيجة نفسها، فلا غرابة أن يكون إمامها ومنارتها.

لقد افتتحت سورة يونس بالأحرف المقطعة، تبعها انتصار لآيات الكتاب الحكيم، ثم ذكرت افتراء عظيما على الوحي والنبوّة،﴿**قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ**﴾(يونس:٢) ثم بيّنت عاقبة أسلافهم الذين مضوا، قال تعالى:﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ**

(١٦) محمد رشيد رضا؛ تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار(بلا تاريخ) دار المعرفة، بيروت. ج ٧، ص ٦٢٠.
(١٧) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٦، ص ٥٧.

نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾(يونس:١٣) ثم بيّنت موقفهم من الآيات البيّنات:﴿ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ** ﴾ (يونس:١٥) ثم ذكرت سؤالهم أن تتزّل آية:﴿ **وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ**﴾ (يونس:٢٠) كل هذه الآيات تقود إلى حقيقة مطلقة ذكرتها الآية الكريمة، وهي "أنّ وجود القرآن مناف لافترائه، فدلالة ذاته كافية في أنّه غير مفترى"[١٨] وأنّ حقائقه البيّنة تقف شاهدة له، وهي الآية الوحيدة التي وصفت القرآن بتصديق ما سبقه، في حين بيّنت الآيات الأخرى أنّ المصدّق هو الكتاب، فكأنّ هذه الآية تشير إلى حقائق مقروءة محفوظة في الصدور صدّقها القرآن، وأنّ الآيات التي تبيّن أنّ "الكتاب" هو المصدّق تشير إلى حقائق محفوظة في السطور.

ومن هذا الأسلوب-كذلك- قوله تعالى:﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** ﴾ (يوسف:١١١) ولقد سبقها قوله تعالى﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾ (يوسف:١٠٩) لقد أكّد القرآن بهذا التصديق صحة ما أرسل به الأنبياء السابقون الذين بشّروا بالنبيّ الخاتم ورسالته.

وحكمة إيراد هذا الأسلوب في الآيات المكية أنّه يتناسب مع طبيعة المخاطبين الذين يفتقرون إلى أدنى علم يحدّد طبيعة العلاقة التي تربط القرآن الكريم بما قبله، وقد ترسّخ في أذهانهم حدود هذه العلاقة وطبيعتها.

---

(١٨) المصدر السابق نفسه، ج ١٢، ص ١٦٨.

أما الآيات المدنية الثلاث فواردة في سياق إقامة الحجة على أهــل الكتــاب، وبأسلوب تقريري يشير إلى أن لا قيمة لإنكار من ينكر، فبعد أن ترسّخ كون القرآن مصدّقا لما بين يديه في أذهان المخاطبين في مكة، فإنّ الموقف يستدعي أن يترسّخ ذلك في أذهان المخاطبين الجدد في المدينة على افتراض جهلهم بهــا، وأول هــذه الآيات قوله تعالى:﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ (البقرة:٩٧) وأحسن ما قيل في التقدير ما ذكره ابن عاشور، والمعنى: قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزل به مــن عنــد الله مصدقا لكتابهم وفيه هدى وبشرى، وهذه حالة تقتضي محبة من جاء به فمن حمقهم ومكابرتهم عداوتهم لمن جاء به، فالتقدير فقد خلع ربقة العقل أو حلية الإنــصاف... وقد أنزله مقارنا لحالة لا توجب عداوتهم إيّاه؛ لأنّه أنزله مصدّقا لما بين يديه مــن الكتاب. وأدخلت لام التقوية على مفعول مصدقا للدلالة على تقوية ذلك التــصديق، أي: هو تصديق ثابت محقق لا يشوبه شيء من التكذيب ولا التخطئة، فإن القــرآن نوّه بالتوراة والإنجيل، ووصف كلاً بأنه هدى ونور[19].

وثانيها، قوله تعالى:﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنــزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ**﴾ (آل عمران: ٣-٤) وتختلف هذه الآية عن سابقاتها من حيث إنّه لم يتقدمها شيء يشير إلى تكذيب الأقوام بالرسل والآيات، ولم يسبقها –كذلك- ذكر لأهل الكتاب، ولا للتوراة والإنجيل، ولعلّ ذلك يحمل دلالة مفادها أنّ القرآن قد أنجز مهمته في ترسيخ مبدأ التصديق، وما يترتــب

(١٩) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: ج ١، ص ٦٢٢.

عليه من إقامة الحجّة على الناس كافّة، حتى بات التصديق واحدا من أشهر الأوصاف التي تفرد بها القرآن الكريم.

وتختتم آيات التصديق بآخر آية حسب تاريخ النزول، وهي قوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ (المائدة:٤٨) وتفرّدت هذه الآية باقتران التصديق مع الهيمنة فيها، لتتسع حدود علاقة القرآن الكريم بالكتب الإلهية السابقة، وهو ما سيأتي تفصيله في المبحث الثالث.

وخلاصة القول: أنّ أغلب الآيات القرآنية أشارت إلى أنّ هذا الوحي منزّل من عند الله تعالى، فأفادت التصديق، وهذا وحده يستدعي الإيمان والتسليم والخضوع والإذعان، وأنّ التصديق في معظمه اقترن بـ "الكتاب" ليبني هذا التصديق على نصّ مكتوب موثوق لا يسع أحداً إنكاره، وأنّ هذا التصديق ما دام أنّه مكتوب فهو يأتي بالحقيقة الكاملة كما أنزلت، وكما أوحاها الله تعالى إلى نبيّه محمد ﷺ، وكما هو في اللوح المحفوظ.

ب. القرآن موصوف بالتصديق المطلق:

وردت آية مكية واحدة جاء فيها ذكر القرآن موصوفا بالتصديق المطلق لكل ما ينتسب إلى الله من الوحي الذي أوحي إلى الأنبياء والمرسلين قبل محمّد ﷺ، قال تعالى:﴿**وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيّاً**﴾(الأحقاف:١٢) لتقترن وتتناسق مع تصديق الرسول المطلق لجميع الأنبياء والمرسلين، كما في قوله تعالى:﴿ **بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾(الصّافات:٣٧) لقد وردت الآية في سياق جدال المشركين بالباطل في الحقائق التي جاء بها الوحي،

وقد سبقها قوله تعالى: **﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾** (الأحقاف:٩) ثم قوله تعالى:﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ** ﴾(الأحقاف:١٠) فقام دليل تصديق القرآن لوحي الله المنزّل منذ بدء الخليقة شاهدا على صدقه، وصدق من جاء به، وهكذا لم تنته الفترة المكية حتى استقرّ في الأذهان أنّ الرسول ﷺ مصدّق لجميع الرسل، وأنّ القرآن مصدّق لجميع الكتب المنزلة.

ج. تصديق القرآن لما مع أهل الكتاب:

وردت أربع آيات مدنيات تشير إلى تصديق القرآن لما مع أهل الكتاب المخاطبين بالإيمان بما نزّل على محمّد ﷺ، ثلاث منها في سورة البقرة، وواحدة في سورة النساء. وقد جاءت كلها في سياق الحوار مع بني إسرائيل الذين أوتوا نصيبا من العلم يمكنهم من معرفة حال نبوّة محمد ﷺ وما جاء به من الحقّ؛ لتقوم الحجّة عليهم من كتابهم. وتختلف هذه الآيات عن سابقاتها من حيث إنّ التصديق هناك كان لجنس الكتاب الإلهي، بل لكل ما نزّل من وحي الله تعالى سواء أكان كتابا، أم وصايا، أم صحفا، أم غير ذلك. بينما التصديق في هذه الآيات هو خاصّ بما بين يديّ أهل الكتاب من بقايا وحي الله تعالى المنزّل إلى موسى وعيسى عليهما السلام. وتختلف هذه الآيات عن سابقاتها –كذلك– من حيث الأسلوب الذي حمل في طيّاته الحزم والإلزام والتبكيت والتهديد. ومن حيث كشف هذه الآيات عن حال بني إسرائيل مع هذا التصديق، وسوء بهتانهم وافترائهم.

وردت بعض الآيات بالأسلوب الطلبي القاضي بالأمر بالإيمان به والنهي عن الكفر به، ومنه قوله تعالى:﴿ **وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ**

بِهِ ﴾(البقرة:٤١) وخصّ أهل الكتاب بهذا الأسلوب لما أنّ الإيمان منهم متوقع أكثر من غيرهم؛ والسبب أنّه جاء موافقا لما عندهم. وهذا الأمر واقــع فــي إمكــانهم ومقدورهم، وليس هناك من عذر يحول دون ذلك. وفيها تأكيد وحدة المصدر الذي تلتقي عنده كلّ كتب الله المنزّلة. يقول الطبري:" ويعني بقوله:﴿**مصدقا لما معكم**﴾ أنّ القرآن مصدق لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة فأمرهم بالتصديق بالقرآن وأخبرهم جل ثناؤه أن في تصديقهم بالقرآن تصديقا منهم للتوراة؛ لأن الــذي فــي القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وتصديقه واتباعه نظير الذي من ذلك في التوراة والإنجيل ففي تصديقهم بما أنزل على محمد تصديق منهم لما معهــم مــن التوراة وفي تكذيبهم به تكذيب منهم لما معهم من التوراة[٢٠].

وهذا أول خطاب لبني إسرائيل ورد في سورة البقرة، وذلك عقب تــذكيرهم بالوفاء بالعهد المأخوذ عليهم، قال تعالى:﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَــا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ** ﴾(البقرة:٤٠-٤١) قال الآلوسي:"وأفرد سبحانه الإيمان بعد اندراجه في "أوفوا بعهدي" بمجموع الأمر به، والحثّ عليه المستفاد من قولــه تعالى:﴿**مصدّقا لما معكم**﴾ للإشارة إلى أنّه المقصود، والعمدة للوفاء بــالعهود"[٢١]. وتعليق الأمر بالاسم الموصول وهو "ما أنزلت" إيماء إلى تعليل الأمر بالإيمان بــه،

(٢٠) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن(١٩٨٠) دار المعرفة، بيروت. ج ١، ص ١٩٩.

(٢١) محمود الآلوسي؛ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (بلا تاريخ)، دار إحيــاء التراث العربي، بيروت. ج ١، ص ٢٤٤، وانظر: محمد بن محمد العمادي، المعــروف بــأبي السعود؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (بلا تاريخ)، دار إحياء التــراث العربــي، بيروت. ج ١، ص ٩٥.

وهو أنّه منزل من الله، وهم قد أوصوا بالإيمان بكل كتاب يثبت أنّه منزّل مـــن الله، ولهذا أتى بالحال التي هي علّة الصلة؛؛ إذ جعل كونه مصدّقا لما في التوراة علامة أنّه من عند الله(٢٢) لقد تأكدت هذه الحقيقة في قوله تعالى:﴿**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَـــابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾ (الأنعام:١١٤).

وسرّ التعبير بالمعية في قوله:﴿ **مصدّقا لما معكم**﴾ للإيذان بكمال وقوفهم على حقيقة الحال، فإن المعية المستدعية لدوام تلاوتها وتكرير المراجعة إليها من موجبات العثور على ما في تضاعيفها المؤدي إلى العلم بكون القرآن مصدقا لهـــا، ومعنـــى تصديقه إياها: نزوله حسبما نعت لهم فيها، أو كونه موافقا لها في القصص والمواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش(٢٣).

لقد بيّن القرآن الكريم حقيقة شغلت نفوس أهل الكتاب، وظهرت في سلوكهم، وهي ارتقابهم لنبيّ آخر الزمان، والتحديث عن قرب ظهوره، فقد ذكر ابن جريـــر عن ابن عباس وقتادة أنّ اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه(٢٤) وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّـــه عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾(القرة:٨٩) وتبيّن الآية موقف بني إسرائيل من الحجّة التي قامـــت عليهم من كتابهم. لقد أمروا بالإيفاء بالعهد في الآية الأولى، وأنّ هذا العهد الذي أخذ عليهم قد استفتحوا به على مشركي العرب، فبات تسليمهم أمرا واقعا، لكن صدمتهم حقيقة ابتعاث النبيّ من غيرهم، فتنكروا حتى لتوراتهم التي بين أيديهم، وهو ما بيّنه

(٢٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٤٥٨.
(٢٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج ١، ص ٩٥.
(٢٤) الطبري، جامع البيان، ج ١، ص ٣٢٥.

قوله تعالى:﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾(البقرة:٩١) لقد استفظع القرآن تكذيبهم هذا؛ لأنّ ما جاء به لا يناقض ما معهم ولا يخالفه، بل هو مصدّق لما معهم "ومجمع ضلالاتهم، ومنبع عنادهم ورد في قوله تعالى:﴿**قالوا نؤمن بما أنزل علينا**﴾ أي: بما أنزله الله إلى موسى عليه السلام؛ فلذلك تصدّى القرآن لتطويل المحاجّة فيهم"[٢٥] فالذي أنزل إليهم يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن وبمحمّد ﷺ، والذي جاء به محمّد ﷺ قد أنزل من عند الله، فعلّة الإيمان وهي كونه منزلا من عند الله واحدة في الكتابين. والتعبير بالمضارع في قوله تعالى:"ويكفرون" لحكاية الحال استغرابا للكفر بالشيء بعد العلم بحقيّته، أو للتنبيه على أنّ كفرهم مستمر إلى زمن الإخبار"[٢٦].

وجاءت الآية الرابعة بأسلوب النداء الذي يحمل في طيّاته التهديد والوعيد، والذي ينبّئ عن غفلة أهل الكتاب وتجاهلهم لتعاليم كتابهم الذي بدّلوا فيه وغيّروا، وزادوا ونقصوا، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً**﴾ (النساء:٤٧) لقد سبق الآية حديث عن التلاعب بما أنزل الله تحريفا وتبديلا من قبل اليهود، وقد سبق تهديدهم ووعيدهم بضرورة الإيمان بالكتاب الخاتم، وهي الآية الوحيدة التي تضمنت تهديدا صريحا بالطمس واللعن، قال ابن عاشور:" وجيء بالصلتين في قوله:"بما نزلنا"، وقوله "لما معكم" دون الاسمين العلمين وهما: القرآن والتوراة: لما في قوله:" بما نزلنا" من التذكير بعظم شأن القرآن أنه منزل بإنزال الله، ولما في قوله:" لما معكم" من التعريض بهم

(٢٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٦٠٦.
(٢٦) الآلوسي، روح المعاني، ج ١، ص ٣٢٣.

في أنّ التوراة كتاب مستصحب عندهم لا يعلمون منه حق علمه، ولا يعملون بما فيه على حدّ قوله::كمثل الحمار يحمل أسفارا"(٢٧).

لقد ناسب هذا الأسلوب وما فيه من تهديد ووعيد طبيعة الصلف والعناد الـــذي بنى عليه أهل الكتاب موقفهم من هذا الكتاب وهذا النبيّ، فلقد كانت الحجّـــة علـــيهم أعظم، والتكذيب منهم أقبح؛ لعلمهم أنّ ما أنزل على محمّد ﷺ مصدّق لما معهـــم، ولذلك أمرهم بالإيمان به، وحذّرهم وهدّدهم وتوعّدهم إن هم كفروا به وعاندوا مـــا جاء به من الحقّ.

المبحث الثاني
محدّد التفصيل وعلاقته بالكتب السابقة

ورد الحديث في القرآن الكريم عن محدّد آخر يوسّع من آفاق العلاقـــة التـــي تربط القرآن الكريم بالكتب الإلهية السابقة، في آيتين مكيّتين تعدّان القـــرآن الكـــريم مفصّلا لما جاءت به تلك الكتب، وقد وردتا مقترنتين بالتصديق. أما الآية الأولـــى فهي قوله تعالى:﴿ **وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(يونس:٣٧) وقد سبق هذه الآية فاصلتان ختمت بهما آيتان تتحدثان عن تفصيل في كتاب الكـــون المنظـــور، ليتبعها بعد ذلك ذكر تفصيل آيات الكتاب المسطور مما اشتمل عليه الوحي الإلهـــي المنزل على رسل الله تعالى، والمجتمع كله في القرآن الكريم، وهاتـــان الفاصـــلتان هما: قوله تعالى:﴿**يفصّل الآيات لقوم يعلمون**﴾(يونس:٥) بعد الحديث عـــن جعـــل الشمس ضياء، والقمر نورا، وما يترتب على ذلك من معرفة عدد السنين والحساب.

(٢٧) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٥، ص ٧٨.

وقوله تعالى:﴿**كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون**﴾(يونس: ٢٤) بعد ضـــرب المثل للحياة الدنيا، وبيان سرعة انقضائها.

والمقصود بالتفصيل من حيث كونه محدّدا للعلاقة بين القرآن والكتب السابقة، كما ذكر الرازي، أنّ القرآن مشتمل على تفاصيل جميع العلوم الــشريفة، عقليهـــا ونقليها، اشتمالا يمتنع حصوله في سائر الكتب، فكان ذلك معجزا، وإليـــه الإشـــارة بقوله:" وتفصيل الكتاب".[٢٨]

ويرى البيضاوي أنّه تفصيل ما حقق وأثبت من عقائد وشرائع[٢٩] أو تفصيل كل شيء يحتاج إليه في الدين، إذ ما من أمر ديني إلا وله سند من القرآن بوسط أو بغير وسط [٣٠] ولا بدّ أن ينظر إلى القرآن كذلك في ضوء العلاقة التـــي تربطـــه بالكتب الإلهية السابقة.

قال ابن عاشور:" والظاهر أن تعريف "الكتاب" تعريف الجنس فيستغرق الكتب كلها. ومعنى كون القرآن تفصيلا لها أنه مبين لما جاء مجملا في الكتب الـــسالفة، وناسخ لما لا مصلحة للناس في دوام حكمه، ودافع للمتشابهات التي ضلّ بها أهـــل الكتاب، فكل ذلك داخل في معنى التفصيل[٣١].

لقد وصفت التوراة بهذا الوصف في قوله تعالى:﴿ **ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً**﴾(الأنعام:١٥٤) لكـــن هـــذا التفصيل تمّ في طور مبكر من الحياة البشرية، وهو تفصيل يفـــي بحاجـــات ذلـــك

(٢٨) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١٧، ص ١٠٠.
(٢٩) أبو الخير ناصر الدين عبد الله الشيرازي، أنوار التنزيل واسرار التأويـــل (١٩٨٢) دار الفكـــر، بيروت، ص ٢٧٩.
(٣٠) المصدر السابق نفسه، ص ٣٢٦.
(٣١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٢، ص ١٦٩.

الزمان. أمّا القرآن فقد وصف في الآية التالية بقوله تعالى: ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ (الأنعام:١٥٥) فوصفه بالبركة وصف تفرّد به القرآن لا يشاركه فيها غيره من كتب الله المنزّلة. والثانية قوله تعالى:﴿**مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾(يوسف:١١١) والتفصيل ورد في تمام سورة يوسف عليه السلام التي ورد ذكره فيها مفصّلا فكأنّ التفصيل فيها متّجه إلى ذلك الموضوع، أعني: موضوع القصص الذي احتل مساحة واسعة في القرآن الكريم فتتكامل الآيتان في بيان مدلول ذلك التفصيل من حيث عدم بقاء الشيء مما تحتاجه البشرية –في آخر عهد لها بالكتب الإلهية– مجملا يحتاج إلى بيان تصديقا لقوله تعالى:﴿ **ما فرّطنا في الكتاب من شيء**﴾(الأنعام:٣٨) وقوله:﴿ **ونزّلنا عليك الكتاب تباينا لكل شيء**﴾ (النحل: ٨٩).

أقول: لقد اتجّه التفصيل إلى ساحتين عظيمتين، شملت الأولى الماضي وأحاطت به، وجعلت تاريخ الإنسان منذ بدء الخليقة بكل أبعاده– السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية– حاضرا بين يديّ الإنسان، ليس فيه شيء من الظلمة أو شيء من المجهول؛ ليكون ذلك المخزون الهائل من التجارب في متناول الإنسان يوظفه بحسب ما ينفعه. أما الساحة الثانية، فقد شملت الحاضر والمستقبل– مما يحتاجه الإنسان في بناء حياته، وتحقيق العمران في الأرض– من أصول العقائد وفروع الشرائع وما تشمله من عبادات ومعاملات ونظم، ليقيم الحياة في ضوء تلك الأصول والفروع والنظم. ويتناسب هذا التفصيل مع طبيعة الرسالة الإلهية الخاتمة في عموميتها وشمولية خطابها، فتفصيله –من وجه– غير قاصر على متطلبات البيئة العربية، وغير محدود بزمانها، بل يشمل متطلبات الإنسان، كلّ الإنسان، إلى

أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهو تفصيل لم يتوافر في كتاب إلهي سابق، وما ورد مجملا في الكتب السابقة فصّله الكتاب الخاتم أتم تفصيل.

المبحث الثالث
محدّد الهيمنة وعلاقته بالكتب السابقة

اقترن التصديق بمحدّد آخر وسّع من آفاق العلاقة التي تربط القرآن الكريم بالكتب السابقة هو الهيمنة، فكأنّ التصديق هو الأساس الذي استندت إليه بقية المحدّدات، ويمكن تفسير ذلك، بأنّ المصدِّق يعلم حقيقة ما جاء به المصدَّق، ويقف على أخباره وقوف الشاهد المعاين لها، المطّلع على خفاياها وخباياها، وذلك لما يقتضيه معنى الصدق من ضرورة مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معا، وعلى هذا فالقرآن في تصديقه للكتب السابقة وافقت أخباره أخبارها، وحقائقه حقائقها، ولم يخالف في شيء من تلك الحقائق، ولم يخرج عنها، فوقوف القرآن على ما جاءت به الكتب السابقة من حقائق وهدايات حتى كأنها وقعت بين يديه، هو ما يستفاد من تكرار جملة "لما بين يديه" فهو الأخبر بمضمونها، والأعلم بحقيقتها، يقول تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾(المائدة:٤٨) وفي معنى قوله تعالى: ﴿**ومهيمناً عليه**﴾ يذكر الطبري:" أي: شهيدا عليها أنّها حق من عند الله، أمينا عليها حافظا لها. وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال: إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن هيمنة، وهو عليه مهيمن. ورواه عن ابن عباس وقتادة، وروى عن آخرين أنّه – القرآن– أمين عليه، يحكم على ما كان قبله من الكتب[٣٢] وروي عن عكرمة

(٣٢) انظر: الطبري، جامع البيان، ج ٦، ص ١٧٢-١٧٣.

معناه: قاضيا[٣٣] قال ابن عطية:" ولفظة المهيمن أخصّ من هذه الألفاظ؛ لأن المهيمن على الشيء هو المعنيّ بأمره، الشاهد على حقائقه، الحافظ لحامله، فلا يدخل فيه ما ليس منه، والله تبارك وتعالى هو المهيمن على مخلوقاته وعباده، والوصي مهيمن على محجور يه وأموالهم، والرئيس مهيمن على رعيته وأحوالهم، والقرآن جعله الله مهيمناً على الكتب يشهد بما فيها من الحقائق، وعلى ما نسبه المحرفون إليها، فيصحح الحقائق ويبطل التحريف[٣٤].

وفسّر القرطبي الهيمنة بالعلو، أي: عاليا عليها ومرتفعا[٣٥].

ويقتضي معنى الهيمنة عند أبي السعود أن يكون: رقيبا على سائر الكتب المحفوظة من التغيير؛ لأنّه يشهد لها بالصحة والثبات، ويقرر أصول شرائعها وما يتأبد من فروعها، ويعيّن أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب، وانقضاء وقت العمل بها، ولا ريب في أن تمييز أحكامها الباقية على المشروعية أبدا عما انتهى وقت مشروعيته، وخرج عنها من أحكام – كونه مهيمنا عليه[٣٦] والعجيب في كلام أبي السعود وغيره من المفسرين قولهم: أنّ القرآن يشهد لها بالحفظ من التحريف والتبديل، واللفظ لا يدلّ على هذا المعنى، فإذا كان معنى المهيمن: الشهيد، فهل يصح أن يتحكموا في شهادته كما يشاؤون؟[٣٧].

(٣٣) محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط (١٩٨٣) دار الفكر، بيروت.ج ٣، ص ٥٠١.
(٣٤) عبد الحقّ بن غالب ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق الرحالي الفاروق وآخرون (١٣٩٨هـ) قطر، الدوحة. ج ٢، ص ٢٩٩. وانظر: البحر المحيط، ج ٣، ص ٥٠٢.
(٣٥) محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (بلا تاريخ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.ج ٦، ص ١٩٨.
(٣٦) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣، ص ٤٥. وانظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، ص ١٥٢. والآلوسي، روح المعاني، ج ٦، ص ١٥٢.
(٣٧) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ٦، ص ٤١١.

وخلص الإمام البغوي في معنى الهيمنة إلى القول: إنّ كتابا يشهد بصدقه القرآن فهو كتاب الله تعالى، وما لا فلا[٣٨] وذلك حين يتخذ القرآن بالهيمنة صفة الحاكمية والمرجعية.

كل هذه المعاني تتفق مع حقيقة العلاقة التي تحكم القرآن بما سبقه من كتب، ولكل وجه منها رصيد كبير من الحقيقة، وبذلك يكون القرآن هو المرجع الأوحد بالنسبة لها، وهو الحاكم الفيصل على وضعها الحالي في كلّ ما ينسب إلى الله تعالى، أو إلى ملائكته، وأنبيائه، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر والقدر، وكلّ ما ينتسب إلى الحقّ من تقوى وخير وفضيلة وبرّ وعدل وإحسان.

هذه الآية هي آخر آية نزلت في بيان علاقة القرآن الكريم بما تقدّمه من كتب إلهية، وهي لم ترد إلا آية مدنية، فهل لهذا من تعليل أو بيان ؟ لعلّ ذلك يرجع إلى أنّ رحلة القرآن مع الكتب الإلهية السابقة كان منطلقها التصديق، ومنتهاها الهيمنة، فموقفه منها لم يتغير من حيث تصديقها، ولكنه -بوصفه الكتاب الخالد- قد آلت إليه الوصاية والمرجعية على جنس الكتاب الإلهي المنزّل؛ لأنّ الكتب السابقة لم تعد قادرة على أن تمثل وحي الله الخالص إلى الأنبياء والمرسلين، فقد شابها التحريف والتخريف، وامتدت إليها الأيدي بالتغيير والتبديل، وليس هناك من حاكم فيصل في الموضوع؛ ولذلك جاء القرآن مهيمنا على الكتاب المنزّل كله، وقد كان حفظه مما أوكله الله تعالى إلى نفسه، فقال:﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾(الحجر:٩).

---

(٣٨) الحسين بن مسعود البغوي؛ معالم التنزيل (١٩٩٧) دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ج ٣، ص ٦٥.

إنّه إذا كان الإنجيل امتدادا للتوراة، فقد جاء مصدّقا لها فحسب، أمّا القرآن الكريم فلكونه امتدادا لرسالات الأنبياء جميعا، فإنّ ذلك يقتضي أن يكون مصدّقا لها جميعا، ومفصّلا لها جميعاً، ومهيمناً عليها جميعا. ولهذه الصفات الثلاث تؤول إلى القرآن الكريم الوصاية والمرجعية والحاكمية في كل ما ينسب إلى الله تعالى من وحي أو إلى الأنبياء من هداية أو تشريع، أو إلى الكون والحياة من حقائق.

المبحث الرابع
مقاصد علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة وغاياتها

تبيّن –فيما سبق– أوجه العلاقة التي تحكم القرآن الكريم بالكتب السابقة. ويتناول هذا المبحث المقاصد الناشئة عن هذه العلاقة التي تحقّق مرجعية القرآن وحاكميته لكل ما أنزل من كتب إلهية إلى الناس، فقد تحقّق في ضوء علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة جملة من المقاصد الهادفة إلى جمع شتات ما بعث به الأنبياء والمرسلون من الخير والهداية، والشاهدة على أنّ ما جاء به القرآن هو الحقّ لا ريب فيه، والمقررة أنّ ما جاء به من حقائق متصلة بالله الخالق أو الكون المخلوق لا تختلف عمّا جاءت به الكتب السابقة، بل وافقها وفصّل كل شيء فيها، فكان مهيمنا عليها، وهذه المقاصد هي:

أولا: تصحيح أصول الإيمان وترسيخها:

لقد سبق القول: أنّ المراد من كون القرآن مصدقاً لما معهم أنه يشتمل على الهدى الذي دعت إليه أنبياؤهم من التوحيد، والأمر بالفضائل، واجتناب الرذائل، وإقامة العدل، ومن الوعد والوعيد، والمواعظ والقصص، فما تماثل منه بها فأمره ظاهر، وما اختلف فإنّما هو لاختلاف المصالح والعصور مع دخول الجميع تحت

أصل واحد[٣٩].

لقد ورد في سياق كثير من الآيات المحدّدة لعلاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة الحديث عن أصول العقائد وأركان الإيمان، ففي أول حديث مع بني إسرائيل في سورة البقرة جاء الخطاب بـ ﴿**وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ** ﴾(البقرة:٤١) والذي يقتضي إيمانهم ويستلزمه هو تصديق ما أنزل على محمّد ﷺ لما معهم من التوراة التي تقررت فيها أصول التوحيد والنبوة واليوم الآخر. كذلك تبقى هذه الأصول هي محور التصديق الذي ذكّر به القرآن مرة بعد مرة ردّا على كفرهم، ونبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، ففي قوله تعالى:﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ** ﴾ (البقرة:٩١) تأكيد على قضية الإيمان، فكيف يزعمون الإيمان بما أنزل عليهم في التوراة وهم يكفرون بالقرآن الذي قرر أصول العقيدة والإيمان كما قررتها التوراة !

لقد تقرر- بالتصديق- أصول الإيمان الحق بالله تعالى وبملائكته وبكتبه ورسله واليوم الآخر على وجه يستحق منكره، والكافر به أن يطمس على وجهه، وأن يخيّب مقصده، ويضلّ سعيه، يقول سبحانه:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً**﴾ (النساء: ٤٧).

(٣٩) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، ج ١، ص ٤٥٩.

لقد بين القرآن إجماع الكتب المنزّلة على أصول الإيمان، وبناء التصور الحقّ الذي شابه كثير من التحريف والتشويه، وظهور المعتقدات الفاسدة بالله وملائكتــه ورسله إلى حدّ ناصبوا فيه الملائكة العداء، كجبريل عليه السلام، ردّ عليهم القرآن مصححاً وباعثاً الحياة في أصول الإيمان الحق التي تشوهت لدى كثير من أهل الكتاب، يقول سبحانه:﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ**﴾ (البقرة: ٩٧-٩٨)؛ لذلك حذّر القرآن من هذه التصوّرات المنحرفة، ودعا إلى الإيمان القويم، كما في قوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا**﴾(النساء:١٣٦)

لقد تأسست هذه الأصول في خطاب كلّ نبيّ مرسل، وتأصلت في خطاب كلّ كتاب منزل، فتصديق القرآن لما بين يديه هو تقرير لهذه الأصول، وإحياء لها في واقع النفس. وواقع الحياة الإنسانية كما أنزلها الله تعالى بلا تحريف ولا تشويه. وبذلك يكون التصديق قد أزال التشوه الذي لحق بهذه الأصول. وهذا مقصد يجب إشهاره، والتذكير به في مؤتمرات الأديان وحوار الأديان.

ثانيا: تقرير مبدأ النبوّة:

النبوّة بوجه عام، ونبوّة سيدنا محمّد ﷺ بوجه خاصّ أصل من أصول الإيمان التي رسخها القرآن إلا أنّ استقلاليتها بالخطاب يجعل منها مقصدا عظيما، وغاية من الغايات التي نتجت عن علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة، فتصديق محمّد ﷺ لما مع بني إسرائيل دليل نبوته، وحجّته على المعاصرين لبعثته من أهل الكتاب، وبــه

يتبين أنّ كلّ أنبياء بني إسرائيل قد بشروا به ﷺ، قال تعالى:﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ**﴾ (الأنعام:٢٠) وقال تعالى:﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ** ﴾ (الأعراف:١٥٧).

وعلى الرغم من وضوح تلك الحقيقة وظهورها، إلا أنّها صادفت ردة فعل حمقاء من فريق من أهل الكتاب إزاء تلك الحقيقة يقول سبحانه:﴿ **وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة: ١٠١) وكان الموقف الأسلم أن يتحققوا من صدق ما جاءهم به ذلك الرسول، المعلوم وصفه لديهم، ولكنه الحسد حين يعمي صاحبه عن رؤية الحق!

لقد بشرت به التوراة في مواطن عديدة، ففي سفر التثنية (الإصحاح١:٣٣-٣): جاء الربّ من سيناء، وأشرق من سعير، واستعلن من جبل فاران، قال الزبيدي:"إن جبال مكة تسمى في التوراة جبل فاران، لا ينكر ذلك احد ممن عرف التوراة"[٤٠].

وفي سفر التكوين (٤٩:١٠): "لا يزول صولجان من يهوذا أو مشرّع من بين قدميه، حتى ياتي شيلوه، ويكون له خضوع الشعب. ومعنى العبارة: إنّ الطابع الملكي المتنبّئ لن ينقطع من يهوذا إلى أن يجيء الشخص الذي يخصّه هذا الطابع،

(٤٠) أحمد بن الحسين الزيدي؛ إثبات نبوّة النبي، تحقيق خليل الحاج (بلا تاريخ)، دار الكتب العلمية بيروت. ص ١٥٧. وانظر: علي بن ربّن الطبري، الدين والدولة في إثبات نبوّة النبيّ محمد (١٩٨٢)، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص ١٣٨ز وانظر: سفر التثنية، الإصحاح ١٨: ١٥-٢٢. والإصحاح: ٣٤: ١٠.

(*) قد لا يصوّر هذا الوصف حقيقة ما عليه الإسلام، فالإسلام دين القوّة، ويسعى إلى تحقيق القوّة، ولكن القوّة التي تقوم على دعائم الحقّ، وأسسه، وتفهم القوّة العسكرية بهذا الاعتبار، فهي قوّة بصيرة، مستنيرة، لا قوّة غاشمة ظالمة.

ويكون له خضوع الشعوب، وعليه فالشخص الذي يخصّه هو صاحب الصولجان والشريعة، أو الذي يمتلك السلطة وحق التشريع وتخضع له الشعوب. إذن، من يكون هذا الأمير الجبار والمشرّع العظيم غير محمّد. لقد جاء محمد بالقوة العسكرية(*) والقرآن يحلّ محلّ الصولجان اليهودي القديم البالي، والشريعة القديمة غير العملية، التي تقوم على التضحيات والرهبنة الفاسدة. ونادى محمّد بأنقى الأديان وهو توحيد الإله الحقّ، ووضع أفضل القواعد العملية والضوابط الأخلاقية والسلوكية للبشر"(٤١).

وبشّر به داوُد عليه السلام (المزمور٤٨): إنّ ربّنا عظيم، محمود جدّا، وفي قرية إلهنا وفي جبله قدّوس محمّد، وعمّت الأرض كلّها فرحا"(٤٢).

كما تقرّرت البشرى بنبوّته على لسان عيسى عليه السلام، قال تعالى:﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾(الصف:٦)

وفي الإنجيل:وسوف أذهب إلى الأب، وسيرسل لكم رسولا سيكون اسمه البرقليطوس؛ لكي يبقى معكم إلى الأبد، ويعني هذا الاسم: الأمجد، والأشهر، والمستحق للمديح، ولا يوجد أدنى شكّ أن المقصود بـ"البرقليط" هو محمّد، أي: أحمد، فالاسمان لهما نفس الدلالة بالضبط، واحد باليونانية، والآخر بالعربية، ومعناهما: الأشهر والأكثر حمدا(٤٣).

(٤١) انظر: عبد الأحد داوُد؛ محمّد في الكتاب المقدّس، ترجمة فهمي شمّا (١٩٨٥)، رئاسة المحاكم الشرعية، قطر. ص ٧٩-٨٢. وانظر علي بن ربّن الطبري، الدين والدولة، ص ١٦٩.
(٤٢) علي الطبري، الدين والدولة، ص ١٣٩.
(٤٣) انظر: داوُد، محمّد في الكتاب المقدّس، ص ٢١٩-٢٢٥. الزيدي، إثبات نبوّة النبيّ، ص ١٥٧-١٦٩.

إنّ نبوة محمّد ﷺ هي اللبنة التي استقر بها الكمال والحسن والجمال في بيـــان النبوة لقوله ﷺ: "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون بـــه ويعجبـــون لـــه، ويقولون: هلاّ وضعت هذه اللبنة؟ قال فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيّين"[٤٤] وهو النـــور الذي أضاء ببعثته ظلمات الأرض، وانكشفت بها ظلمات النفس، قالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك ؟ فقال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمـــي حـــين حملت بي أنّه خرج منها نور أضاءت له بُصرى، وبُصرى من أرض الـــشام"[٤٥] وبهذا الاستقرار للنبوّة تتأسس الثقة والطمأنينة في نفس النبيّ ﷺ بما يوجب اليقـــين بأنّه رسول الله وخاتم النبيين، وتتأسس كذلك ثقة المؤمنين بنبيّهم.

ثالثا: تأكيد أصول التشريع والأخلاق:

ومن مقاصد هذه العلاقة تأكيد أصول التشريع كالعبادات والمعاملات والأخلاق التي هي محل اتفاق بين القرآن الكريم والكتب السابقة، فالصلاة، والصيام، والزكاة، قاسم مشترك بين كتب الله المنزلة. وكذلك أمهات الأخلاق والفضائل الجامعة لكـــل صفات الخير، كالتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك الكذب، والنهي عن أكل الحرام، وقول الحق....قواسم مشتركة أيضا. كذلك بذل النفس في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا محل اتفاق بين الكتب الإلهية، يقول ســـبحانه:﴿ **إنَّ اللّـــهَ**

(٤٤) مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري، الجامع الصحيح، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، ج ٤، ص ١٧٩١، ح٢٢.

(٤٥) محمّد بن عبد الله الحاكم، المستدرك على الصحيحين(بلا تاريخ) دار المعرفة، بيروت، ج ٢، ص ٦٠٠، قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح.

اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾(التوبة:١١١).

كذلك اتفاق كتب الله على السنن الهادية للإنسان في الحياة يقول سبحانه:﴿ **يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ (النساء:٢٦)، قال صاحب المنار في معنى قوله:"سنن الذين من قبلكم": أي: طرقهم في العمل بمقتضى الفطرة السليمة وهداية الدين والشريعة، كل بحسب حال الاجتماع في زمانه، كما قال: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا**﴾ وإنّما كان دين جميع الأنبياء واحدا في التوحيد وروح العبادة وتزكية النفس بالأعمال التي تقوّم الملكات، وتهذّب الأخلاق(٤٦)، فليس غريبا أن يدعو هذا الدين إلى الأخلاق الفاضلة، والقيم النبيلة، والسلوك الحسن، فكل ذلك مما توافق مع هدي الأنبياء السابقين عليهم السلام.

كذلك، التقوى التي هي نهج حياة واستقامة وطابع عام يميز سلوك العابد لله عن غيره هي محل اتفاق بين كتب الله تعالى، يقول سبحانه:﴿ **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ**﴾ (النساء:١٣١)، فلا عجائب في عقائد هذا الدين، ولا غرائب في شرائعه تنفر الناس من إتباع هديه وسننه، فدين الله للأنبياء كافة هو: الحق، والعدل، والتوحيد، والإحسان، وترك الكفر والفسق والفجور والعصيان، لايختلف في ذلك نبيّان.

رابعا: الدلالة على وحدة المصدر:

وحدة المصدر ووحدة الأهداف والغايات الجامعة بين كتب الله المنزلة من أهم مقاصد العلاقة التي تربط بين القرآن الكريم وبينها، على الرغم من أنّ الشرائع فيها

(٤٦) رضا، تفسير المنار، ج ٥، ص ٣٦.

قد تكون مختلفة أو متباينة، فبتصديق القرآن لها وبتفصيله ما جاءت به حتى يــصل إلى أن يكون مهيمنا عليها، ورقيبا وحاكما، فذلك كلّه يشير بجلاء إلى وحدة مصدر التنزيل، ووحدة الحقيقة المنزلة، ووحدة المقصد والغاية من هذا التنزيل. إنّها جميعا كلام رب العالمين ووحيه إلى رسله وأنبيائه؛ ذلك أنّ المصدّق يقف حاضرا شاهدا، وأنّ المفصل يقف عليما خبيرا، وأنّ المهيمن يقف حاكما ورقيبا وحسيبا، ولا يكون ذلك إلاّ إذا كان القائل والمنزل لهذه الكتب واحدا، ولو كان أكثر من واحد؛ لوقعــت الفرقة، وكثر الاختلاف. وتوضيحا لهذا مثلا نجد كلا من نــوح وهــود وصــالح وشعيب عليهم السلام قد قال كلّ لقومه فيما أخبر سبحانه:﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾(الأعراف:٥٩،٦٥،٧٣،٨٥). وأخبر القرآن على لسان عيسى عليه السلام قوله:﴿ **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّــهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾(المائدة:٧٢). وقرّر القرآن على ألسنة جميع الأنبياء﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُــولاً أَنِ اعْبُــدُواْ اللّــهَ وَاجْتَنِبُــواْ الطَّاغُوتَ**﴾(النحل: ٣٦) وهو مما لم ينكره أحد من أتباع الديانات، ولا ينبغي له ذلك.

خامسا: بيان كمال الرسالة الخاتمة:

من المفيد أن نذكر أنّ محدد التصديق الذي يحكم علاقة الكتب السابقة بعضها ببعض كان ضيقا إلى حد كبير، من حيث محدودية ذلك التصديق بين الكتب السابقة، فلم يصدّق كتاب كتابا إلا الإنجيل الكتاب الوحيد الذي صدّق التوراة، وهما كتابــان خاصّان ببني إسرائيل، في حين لم تتسع الأرض ولا السموات لتقرير تصديق القرآن الكريم لكتب الله المنزلة كلّها. وهذا من شأنه أن يجعل لهذا الدين مكانة خاصّة بــين سائر الأديان، ويجعل لمحمّد ﷺ مكانة خاصّة بين سائر الأنبياء، ويجعــل للقــرآن الكريم حاكمية مطلقة على كتب الله المنزّلة.

لقد تاكّد في قوله تعالى:﴿ **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (يوسف:١١١) انبعاث التصديق من جهتين: تتمثل إحداهما في حقائق القرآن التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وهذه قد شهد بها ولها ملايين البشر على مر القرون. وتتمثل الأخرى في شهادة الكتب السابقة له، ويضاف إلى ذلك شهادة أخرى هي شهادة الجنّ بأنّ هذا الكتاب مصدّق لما بين يديه، قال تعالى:﴿ **قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾(الأحقاف:٣٠)، فكتاب يشهد له الثقلان، وتشهد له الكتب السابقة لا شك أنّ منزلته عظيمة، ومكانته سامية رفيعة، " إنّ هذا القرآن من ورائه العرش الأعظم يستند إليه، فهناك نور الوحي، وبين يديه سعادة الدّارين يستهدفهما بامتداد ارتباطاته بالأبد حيث نور الجنّة والسعادة، ومن فوقه تتلألأ آية الإعجاز، ومن تحته أعمدة البراهين الرصينة والدلائل الدامغة، التي فيها الهداية الخالصة، وعن يمينه يقف استنطاق العقول وتصديقها لكثرة ما فيه: "أفلا تعقلون"، وعن يساره استشهاد الوجدان حتى ينطق من إعجابه "تبارك الله" بما ينفخ من نفحات روحية، فمن أين يا ترى أن تتسلل إليه الأوهام والشبهات؟[٤٧].

كذلك، بما أنّ محمّدا ﷺ كان قد أمر بالاقتداء بجميع الأنبياء، وهذا يعدّ تصديقا لهم، وجمعا لمحاسنهم، فإنّ القرآن قد جمع أيضا كلّ محاسن الكتب الإلهية؛ لذلك وصف بأنّه مبارك قبل أن يوصف بالتصديق في قوله تعالى:﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ (الأنعام:٩٢)

(٤٧) انظر: سعيد النورسي، المكتوبات، ترجمة، إحسان الصالحي، (١٩٩٢) سوزلر للنشر، إستانبول. ص ٢٤٨.

سادسا: إثبات إعجاز القرآن الكريم:

من مقاصد هذه العلاقة وأهدافها إثبات إعجاز القرآن، وذلك من حيث كـون القرآن الكريم قد جاء ﴿**مصدّقا لما بين يديه**﴾(البقرة: ٩٧). وهذا يعنـي أنّ هـذه الحقائق الإلهية الموافقة للفطرة، والمنسجمة مع معطيات العقل لا يمكن أن تختلـف عليها رسالة من رسالات الأنبياء، وورودها في هذا الكتاب دليل إعجازه؛ لأنّ محمدا ﷺ بعث أميا، لم يكتب له الاطّلاع على ما في الرسالات السابقة، فتصديقه لكلّ ما جاءت به من حقائق خارج عن إمكانات العقل البشري، وهو فوق طاقـة الإنـسان العالم، فكيف بالإنسان الأميّ ؟ ولذلك جاء التصديق يحمل صفة الإعجاز بين جنباته، لقد ذكر ابن عاشور في معنى قوله تعالى:" وآمنوا بما أنزلت مصدّقا لما معكـم" أنّ جعل كونه مصدّقا لما في التوراة علامة أنّه من عند الله، وهـي العلامـة الدينيـة المناسبة لأهل العلم من أهل الكتاب، فكما جعل الإعجاز اللفظي علامة على كـون القرآن من عند الله لأهل الفصاحة والبلاغة من العرب، كـذلك جعـل الإعجـاز المعنوي وهو اشتماله على الهدى الذي هو شأن الكتب الإلهية علامة على أنّه مـن عنده لأهل الدّين والعلم بالشرائع(٤٨).

لقد تأكدت هذه الحقيقة في قوله تعالى:﴿**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾ (الأنعام:١١٤) فمن أعلم محمّدا ﷺ بسير الأنبياء السابقين! ومـن أطلعه على تلك التفاصيل الدقيقة في حياتهم! أليس إخباره النّاس بذلك إخبار الواثـق المطمئن دليل إعجاز ؟ بل يصل التصديق إلى أن يكون معجزة للأنبياء الـسابقين، وشهادة لهم على صدق نبوّتهم، قال ابن عاشور:" وممّا يشمله تصديق القرآن لمـا

(٤٨) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٤٥٨.

معهم أنّ الصفات التي اشتمل عليها القرآن ودين الإسلام والجائي به موافقة لما بشرت به كتبهم، فيكون وروده معجزة لأنبيائهم، وتصديقا آخر لدينهم"(٤٩).

ويعدّ تفصيله لما جاءت به الكتب السابقة مظهر إعجاز للقرآن أيضا، وذلك لأنّه استند على تلك الأصول الجامعة بين الكتب الإلهية، فنشأ التفصيل في العقائد والشرائع، والقصص والأخلاق، ومثال ذلك في القصص أنّ التوراة ذكرت قصة يوسف عليه السلام، وذكرها القرآن أيضا، لكن زاد في بيانها تفصيلا لم يرد في التوراة، فهمّ امرأة العزيز بيوسف عليه السلام وهمّه بها لولا أن رأى برهان ربّه، ودعاؤه أمام إلحاح امرأة العزيز، وإخباره بعام الرخاء والنجاة، ووعظه في حضرة الملك، وتشاور الإخوة في شأنه، وإرسال قميص يوسف إلى يعقوب، ووجدان يعقوب وشفاؤه ودعاؤه وعفوه عن بنيه، كلّ ذلك لم يرد في الرواية التوراتية للقصة(٥٠) فهو تفصيل من يعلم أسرار الغيوب التي يعدّ ورودها في القرآن على لسان أمّي مظهر إعجاز يؤكد خروج هذا الكتاب عن إمكانات البشر وقدراتهم.

ويقتضي هذا الإعجاز التسليم والانقياد والإذعان له بوصفه حجة مقنعة للنفس والقلب والعقل جميعاً، بل للكيان الإنساني كلّه بكل ملكاته ومشاعره وأحاسيسه وقواه المعنوية والوجدانية، إنّه إيمان وتسليم بكل حقائق عالم الغيب والشهادة التي نطق بها هذا الكتاب المبارك، والمصدّق والمفصّل والمهيمن، وهو انقياد لسلطان الخالق جلّ جلاله منزل هذا الكتاب على خاتم رسله وأنبيائه محمّد صلى الله عليه وسلم.

---

(٤٩) المصدر السابق نفسه، ج ١، ص ٤٥٩. أي ورد ذلك في القرآن معجزة له ولأنبيائهم.
(٥٠) انظر: مالك بن نبي؛ الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين(١٩٨١) دار الفكر، بيروت. ص ٢٤٠-٢٤١.

المبحث الخامس
الأبعاد المنهجية لعلاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة

تتضح أبعاد منهجية نتجت عن علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة، تضبط أسلوب التعامل مع تلك الكتب، خاصّة التوراة والإنجيل، وتبطل القيمة العلمية للقول الذي يجيز رواية الإسرائيليات، ويدخلها إلى الثقافة الإسلامية بصفة عامة، أو الثقافة القرآنية بصفة خاصّة.

لقد تمّ تصديق عيسى للتوراة، وتصديق الإنجيل لها، وتصديق محمّد ﷺ للأنبياء كلهم، وتصديق القرآن للكتاب الإلهي كلّه – في معزل عن عنصر الزمان، أي: إنّ بين عيسى والتوراة فترة زمنية طويلة، وكذلك بين محمّد ﷺ والكتب الإلهية والأنبياء الذين سبقوه أزمان متطاولة، ومع ذلك يأتي التصديق كأنّه رأي العين، وكأنّ عنصر الزمان قد اختفى تماما، وكأنّ محمّدا ﷺ كان الحاضر الرقيب عليها، وعليهم جميعا، وكذلك حال ما أنزل عليه من وحي كان كالحاضر الرقيب عليها. والبعد المنهجي في تصديق محمّد ﷺ لجميع المرسلين هو أنّ ما ورد على لسان محمّد ﷺ هو الحقّ والصّدق بكلّ ما يتعلق بالأنبياء، وهو أشبه ما يكون بالوصاية على نبوّاتهم وعقائدهم وكتبهم من حيث ما تضمنته من حقائق وأحكام، وبذلك يكتسب النبيّ صفة المرجعية المنهجية في ضبط هذه العلاقة بمن تقدّمه، فبيان الحقّ في شأن المرسلين يؤول إلى هذا النبيّ الخاتم. وهذا بعد يجب إدراكه والوقوف على حقيقته في فهم نبوّات الأنبياء والمرسلين وعلاقتهم بالنبي الخاتم. وهذا يقتضي تحريم نقل معلومات بخصوص الأنبياء لا يعرف مصدرها، ولم تثبت عن الصادق المصدوق كالإسرائيليات والموضوعات وغيرهما؛ لافتقار ذلك كلّه إلى المرجعية الحقّ.

وبعد منهجي آخر يؤكد حقيقة النبوّة بوصفها مصدرا معرفيا لا بديل له فيما يتصل بالهداية في العقائد والشرائع والأخلاق والسلوك والتربية، وذلك أنّ نصوص العهد القديم من التوراة، أو العهد الجديد من الإنجيل بسبب العبث الذي امتدّ إليها قد شوهت شخصية الأنبياء من لدن آدم إلى عيسى عليه السلام، وكأنّ نبوّة محمد ﷺ بتصديقها لهم قد وضّحت وأصّلت حقيقة النبوّة إلى يوم الدّين، فالصوّرة الأخيرة للنبوّة أصّلت كلّ شيء في بعثة الأنبياء، ولذلك كان أغلب ما ذكر في القرآن واردا في شأن الأنبياء وقصصهم، فصار القرآن بذلك هو المصدر الوحيد الموثوق به في معرفة قصصهم وأخبارهم، وبعبارة أخرى، أقول: كأنّ مبدأ النبوّة لم يستقر إلا ببعثة محمّد ﷺ، وهذا هو الواقع، فإنّه لا يمكن معرفة الأنبياء من خلال الكتب السابقة، وخاصّة التوراة، فليس هناك من نبيّ إلا أسيء إليه فيها، فتشوّهت صورهم الطاهرة النقية عند الناس بفعل التحريف والتبديل، إنّ تصديق محمّد ﷺ للأنبياء السابقين يعني ترسيخ حقيقة النبوة وتثبيت قواعدها، وتقرير نبوّة الأنبياء وتأكيدها؛ وذلك يؤدّي حتما إلى كونها مصدراً معرفياً مهمّا في كلّ ما يتصل بعالم الغيب والشهادة من حقائق وهدايات للإنسان والحياة. لقد عمل القرآن الكريم بسبب تصديقه للكتب السابقة وتفصيله لها وهيمنته عليها على إعادة الثقة بالأنبياء والثقة بالنبوّة وبتعاليم النبوّة.

وبعد منهجي آخر يجعل من محدّد التصديق ركيزة هامة من ركائز الدعوة إلى الله تعالى، فهذه المحدّدات تؤهل المسلمين – الذين آل إليهم ميراث النبوّة، وآمنوا بالأنبياء جميعا– للقيام بفريضة الدعوة إلى الله تعالى؛ فكون القرآن مصدّقا للكتب السابقة، وكون محمّد ﷺ مصدّقا للأنبياء جميعا يجعل من مخاطبة الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم بالقرآن أمرا مشروعا، بل فريضة عظيمة، فمحمّد

ﷺ هو أولى الناس بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، قال تعالى:﴿ **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ** ﴾(آل عمران:٦٨) وهو أولى الناس بموسى عليه السلام كما ورد في الحديث الصحيح[٥١]، وهو وأمته من يشهد لنوح عليه السلام يوم القيامة على ما شهدت به نصوص صريحة من السنّة[٥٢]؛ لذلك حقّ للمسلمين أن يدعوا إلى الله كلّ أمم الأرض إلى الإسلام، ليجمع بذلك شتات الإنسانية التي مزقها الهوى والضلال، كأنّه تصديق لذواتهم وما انطوت عليه، وكأنّه حقّق مضمون ما دعوا إليه، وتجسّدت مقاصد رسالاتهم في رسالته، هداياتهم في هديه، " فالقرآن جامع لسرّ إجماع كتب الأنبياء والأولياء قاطبة، على الرغم من اختلاف عصورهم ومشاربهم ومسالكهم، أي: إنّ جميع أرباب العقول السليمة، والقلوب المطمئنة يصدّقون مجمل أحكام القرآن الكريم، وأساس ما يدعو إليه، حيث يذكرونه في كتبهم، فهم –إذن– بمنزلة أصول شجرة القرآن السماوية"[٥٣] ومن هنا يسهل فهم الخطاب القرآني، ومن هنا أيضا يجد القرآن سبيله إلى نفوس الناس وقلوبهم، من تلك الحقائق الهادية التي أجمعت عليها كتب الله ورسالاته، لا تجد الفطرة ولا العقل إلا حسن استقبالها.

إن التصديق والتفصيل والهيمنة تدفع بالخطاب الإسلامي إلى الأمام ليحتل موقع الصدارة، ليتفيأ مكانته السامية المناسبة في ساحة الحياة من حيث إنّ مفردات هذا الخطاب ومتطلباته ليست غريبة ولا عجيبة، ولا موحشة بالنسبة إلى أهل الأديان السابقة، ولا بالنسبة إلى غيرهم؛ فقد تقررت عبادة الله في الأديان كلها، والإيمان بالله

(٥١) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى:" وهل أتاك حديث موسى"ج٣، ص ١٢٤٤ ح ٣٢١٦.
(٥٢) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التفسير، باب تفسير سورة البقرة آية:١٤٣، ج ٤، ص ١٦٣٢، ح٤٢١٧.
(٥٣) النورسي، المكتوبات، ص ٢٤٨.

وبالغيب ليس بدعا من القول، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقرر في رسالاتهم كما قال سبحانه:﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**﴾.(المائدة: ٧٨-٧٩) وترك الكفر والفسوق والعصيان، والخمر والزنا، وغير ذلك من أمور معلومة لديهم، فليس هناك دين لله تعالى يتقرب إلى الله بالمعصية والفجور، فما الغرابة فيما يدعو إليه القرآن الكريم! " إنّه لكونه من عند الله جدير أن يقبل ويتّبع ما فيه، ويعمل بمضمونه، إذ هو وارد من عند خالقهم، وإلههم الذي هو ناظر لمصالحهم"(٥٤).

لقد مهدت التوراة وكذلك الإنجيل لبعثة محمّد ﷺ وبشّرا بالقرآن الكريم الذي أنزل عليه، فتهيّأت نفوس الناس وقلوبهم لاستقبال الوحي الجديد والنبيّ الخاتم، وإلى ذلك يعزى دخول أمم كثيرة من أتباع الديانات في الإسلام، وكان انتشار الإسلام في بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا سريعا، واستقرّ هذا الدين في قلوب الناس وأرضهم على الرغم من كل تلك المحاولات العسكرية التي سيرتها الكنيسة إبان الحروب الصليبية لاستعادة هذه البلاد، وإعادة أهلها إلى المسيحية، ولا يزال هذا الدين يحظى برغبة كثير من أتباع الديانات، فهو اليوم أكثر الأديان قبولا بين الناس، وأكثرها استقطابا لهم على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، وازدياد عدد الجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا دليل احتلال خطابه موقع الصدارة.

ومن الأبعاد الأخرى، إنهاء صلة الكتب السابقة بجملتها على وضعها التي هي عليه اليوم بالله سبحانه وتعالى، من حيث إنّها لم تعد تمثّل وحي الله تعالى إلى الأنبياء

---

(٥٤) أبو حيّان، البحر المحيط، ج ١، ص ٣٠٢-٣٠٣.

والمرسلين؛ لأنّ تصديقها لا يعني بحال أنّه ناطق باستمرار صدق هذه الكتب، وهذا لا ينافي أنّ هذه الكتب تشتمل على قبس من نور النبوّة وهدايتها، إنّه حين يتقرر تصديق القرآن بعثة الأنبياء بإحياء تعاليمهم وما دعوا إليه، فإنّه يترتب على ذلك إنهاء العمل بتلك التعاليم؛ لكونها لم تبق على حالها، ولم تستطع تلك الكتب أن تحافظ على الحقّ المنزّل فيها، ولم يعد ما تبقى من الحق منهجا هاديا إلى الصراط المستقيم. لقد ورد تصديقها لبعث الحياة في تعاليم النبوّة بحيث تستعصي على التحريف والتبديل، ولتحيا مع الإنسان إلى يوم الدين، ولمّا لم تتأهل الكتب الإلهية السابقة لهذه الغاية لأسباب اقتضتها الحكمة الإلهية، تأهّل القرآن الكريم لها. هذه الحقيقة تنبّئ عن البعد المنهجي الذي يجب الوقوف عليه في التعامل مع تلك الكتب، ومع هذا الكتاب المهيمن على الكتاب كله.

وتأكيدا لذلك، فإنّ في قوله تعالى:﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ**﴾ (آل عمران:٣-٤) إنهاء لعمل الكتب السابقة بعد تصديقها؛ لأنّه لا يلزم من تصديقها بقاؤها واستمرارها، قال ابن عاشور:" وتقديم "من قبل" على "هدى للناس" للاهتمام به، وأما ذكر القيد فلكي لا يتوهم أنّ هدي التوراة والإنجيل مستمرّ بعد نزول القرآن، وفيه إشارة إلى أنّها كالمقدّمات لنزول القرآن الذي هو تمام مراد الله من البشر"[٥٥].

إنّ التصديق يعني أنّ ما جاء به النبيّ ﷺ من عند الله هو حقّ، " فهو تصديق للحقّ الذي عندهم، لا كلّ الذي عندهم، وإلا لدخل في ذلك عقائدهم الفاسدة،

---

(٥٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣، ص ١٤٩.

وأوهامهم وخرافاتهم وغيرها، مما جاء القرآن لإزالته ومحقه، ويستحيل أن يكـــون مصدّقا لما جاء لإبطاله"(٥٦).

"إنّه تصديق إجمالي لأصل الوحي، لا يتضمن تصديق ما عند الأمـــم التـــي تنتمي إلى أولئك الأنبياء من الكتب بأعيانها ومسائلها، مثاله تصديقنا لنبيّنا محمّد ﷺ في جميع ما أخبر به، فهو لا يستلزم تصديق كلّ ما في كتب الحديث المروية، بل ما ثبت منها عندنا فقط"(٥٧) بمعنى أنّ هذه العلاقة تقتضي التأييد في مواطن الاتفـــاق، والتصويب والتصحيح في مواطن الافتراق.

ويقتضي التعبير بالمصدر في قوله﴿**تصديق الذي بين يديه**﴾(يوســـف:١١١) فاعلا ومفعولا، ليؤكد معنيين للتصديق، هما: أنّه مبيّن للصادق منها، ومميّز له عمّا زيد فيها وأسيء من تأويلها. وأنّ الكتب السابقة تشهد له فيما أخـــذ العهـــد علـــى أصحابها أن يؤمنوا بالرّسول الذي يجيء مصدّقاً وخاتماً (٥٨) وإن جاهليو العرب لا يصدّقون بحقائق القرآن، فإنّهم كانوا يثقون بما لدى أهل الكتاب من علم، وعلى أيّ من الوجهين لا يسعهم إلا الإيمان والتسليم.

ومن الأبعاد المنهجية ما ذكره صاحب المنار عند تفسير قوله تعالى:﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُـــمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ**﴾(آل عمران: ٨١) من أنّها حجّة على الذين يجعلون الدّين سببا للخلاف والنزاع والعداوة والبغضاء"(٥٩). وبما أنّ أصول الدين عبـــر الرســـالات

(٥٦) القاسمي، محاسن التأويل، ج ٩، ص ٣٠٢.
(٥٧) رضا، تفسير القرآن الحكيم، ج٣، ص ١٥٥.
(٥٨) انظر: التحرير والتنوير، ج ١٢، ص ١٦٩.
(٥٩) رضا، تفسير القرآن الحكيم، ج ٣، ص ٣٥٢.

واحدة، فالسبيل ميسر، والطريق ممهّد إلى التآلف والتعاون، ونبذ الحقد والكراهية بين أتباع الديانات الإلهية، والاجتماع على التعاون لما فيه خير الإنسانية، ورفع الظلم عن الإنسان أفرادا وشعوبا.

لقد أعلن القرآن في وقت مبكر أنّه مصدّق للكتب السابقة، فلم يشأ أن يفتح جبهات صراع ديني خاصّة مع أهل الكتابين؛ لأنّ هذا الصراع يفقد الثقة بمبدأ الدّين، ويشكّك في نواياه ومقاصده، لقد وقع التصديق على وفق ما أنزل الله في وحيه الخاتم إلى محمّد ﷺ وليس مصدّقا على حسب ما لدى أهل الديانات من علم لا دليل على بقائه على أصله المنزّل من عند الله تعالى.

لقد أثير في الآيات المكية عدد من الموضوعات التي وردت في سياق الحديث عن محدّد التصديق، فقد تحدّث عن خشية العلماء لله، وعن الذين يتلون كتاب الله، وأقاموا الصلاة، وأنفقوا مما رزقهم سرّا وعلانية، مع أنّ الصلاة لم تنزل فرضيتها بعد، مما يدلّ على أنّ هناك أصولا عامّة مشتركة بين الأديان تصلح للاتفاق والتعاون.

لذلك كلّه، ولتلك الأوصاف التي تفرّد بها القرآن الكريم تظهر هيمنته على كلّ مظهر من مظاهر القوّة المعنوية أو المعرفية التي يتمتع بها البشر مهما بلغت، وأينما اتجهت وانتهت، وعليه لا بدّ أن تظهر هيمنته في منهج دراسته والتعامل معه، فيكون الاهتمام الأول في مؤسسات التعليم كلّها بالقرآن بوصفه الكتاب الإلهي الأعظم في الوجود، والمصدر الأول في العلم والمعرفة؛ ليعلو ذكره في جامعاتنا ومعاهدنا

العلمية وحياتنا العملية على ذكر علماء الغرب وفلاسفته أمثال: فرويد وديكارت ودوركايم، وبرتراندرسل، وسبنسر، فضلا عن أفلاطون وأرسطو... وغيرهم.

كذلك، قصر الهمم على مطالعة الكتب الصفراء وحلّ ألفاظها وشرح مجملها، وبيان مبهمها، مما يضعف أثر هيمنة القرآن الكريم بوصفه المصدر الأول للتشريع،"إنّ الذي يسوق جمهور الناس الاتّباع وامتثال الأوامر، هو ما يتحلّى به هذا المصدر من قدسية هي التي تدفع جمهور الناس إلى الانقياد أكثر من قوّة البرهان، ومتانة الحجّة، فينبغي –إذن– أن تكون الكتب الفقهية بمنزلة وسائل شفّافة كالزجاج، لتعرض قدسية هذا القرآن الكريم، وليس حجابا دونه، أو بديلا عنه"([٦٠]) وذلك يعني أنّ من أهم الأصول المنهجية اللازمة في التعامل مع القرآن الكريم هي أن يكون المنطلق الأول في البحث والدراسة.

(٦٠) سعيد النورسي، صيقل الإسلام، تحقيق إحسان الصالحي (١٩٩٥)، سوزلر للنشر، إستانبول. ص ٣٤٧.

الخاتمة

ومما تقدم تكون هذه الدراسة قد حاولت الكشف عن مكنون العلاقة التي تربط القرآن الكريم بالكتب الإلهية السابقة، وتحديد مقاصد هذه العلاقة، والكشف عن أبعادها المنهجية، وقد خلصت إلى جملة من النتائج نجعلها في النقاط الآتية:

أولاً – إنّ الإخبار بتصديق القرآن الكريم للكتب السابقة كان بهدف تحقيق مضمونها، وإحياء تعاليم الوحي في واقع الحياة، بحيث يكون للمصدّق صفة المرجعية والحاكمية، ممّا يقتضي التأييد في مواطن الاتفاق والتصويب في مواطن الافتراق هو المقصود بمحدّد التصديق الذي يحكم علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة.

ثانياً– تحدّدت اتجاهات التصديق في تصديق الرسول للرسول، وتصديق الرسول للكتاب، وتصديق الكتاب للكتاب، أمّا تصديق الكتاب للرسول فلم يكن إلا لرسول الله محمّد ﷺ. وقد ورد بأساليب عديدة كالتقرير والطلب والإلزام والتهديد والوعيد، وناسب كل أسلوب طبيعة المخاطبين، غير أنّ ورود أكثر الآيات كان على أسلوب التقرير بقطع النظر عن إنكار من أنكر ؛ للدلالة على اختصاص القرآن بهذا الوصف على صورة مطلقة.

ثالثاً– التفصيل محدّد ثان نشأ مستندا إلى محدّد التصديق، والمقصود به بيان مجملات الكتب السابقة في العقائد والشرائع والأخلاق وغيرها، على صيغة أظهرت أنّ الإسلام الذي جاء به محمّد ﷺ. هو أصل الديانات كلّها، وهو المفصّل لها جميعها، وهو أكثرها بركة وخيرا، أذن الله تعالى أن تثبت حقائقه إلى يوم الدّين.

رابعاً – ورد معظم آيات التصديق والهيمنة في سياق الجدل مع أهل الكتاب؛ وذلك لمواجهة موجة التكذيب برسالات الله وأنبيائه التي أطلقها اليهود، وكان جدالهم دفاعاً عن اهتراء معالم الهداية التي جاء بها موسى عليه السلام.

خامساً – الهيمنة التي تقتضي أن يكون القرآن الكريم صاحب الولاية والوصاية على الكتب السابقة جميعا، والأمين على وحي الله تعالى، والحاكم والقاضي عليها، والأكثر علوّا وسموّا محدد ثالث من محدّدات هذه العلاقة.

سادسا – من أهمّ مقاصد علاقة القرآن بما سبقه: تصحيح أصول الإيمان وترسيخها، وتقرير مبدأ النبوّة عامّة ونبوة محمّد ﷺ خاصة، وتأكيد وحدة المصدر، وبيان كمال الرسالة الخاتمة، وإثبات إعجاز القرآن الكريم.

سابعاً– اتّخذت هذه العلاقة أبعادا ألقت بظلالها على منهج التعامل مع الكتاب الإلهي المنزّل في صورته الأخيرة، فالقرآن والسنّة هما المرجع في كلّ ما يتعلق بالله، والكون، والحياة، والإنسان. وهما المصدر الأول في العلم والمعرفة. خاصّة وأنَّ أهمّ ما نتج عن هذه العلاقة هو إعادة الاعتبار والثقة للأنبياء والنبوّة.

ومن الأبعاد كذلك، أنّه في ضوء هذه المحدّدات أصبحت الدعوة إلى الله تعالى ترتكز على أرضية راسخة، وتستند إلى دعائم قوية، تدفع بالخطاب الإسلامي ليحتل موقع الصدارة بالنسبة إلى الإنسان. وإلى هذا يعزى دخول الناس في دين الله أفواجا ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

كذلك، أنهت هذه المحدّدات صلة الكتب السابقة بالله سبحانه وتعالى، فلا تنسب اليوم بجملتها إليه سبحانه. وهذا لا ينافي– من ناحية أخرى– إقامة القرآن الكريم

أرضية صلبة تمهّد لتعاون كبير بين أتباع الأديان على أساس من الوفـــاق، ونبـــذ الصراع والشقاق، ورفع الظلم عن الأمم والشعوب، مما يتطلب بحق إعادة النظر في كلّ النصوص المقدّسة لدى أهل الأديان الأخرى، ووضعها على المحكّ العملي، ولا مانع من وضع نصوص القرآن الكريم على المحك نفسه، واختبار نصوصه تصديقا لقول الله تعالى:﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا**﴾ (النساء:٨٢).

دليل المصادر والمراجع

١. الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات، تحقيق محمد سيد كيلاني، (بلا تاريخ) ، دار المعرفة، بيروت.

٢. الآلوسي، محمود بن عبد الله ؛ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني(بلا تاريخ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣. البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح (١٩٨٧) دار ابن كثير ، بيروت.

٤. البغوي، الحسين بن مسعود؛ معالم التنزيل (١٩٩٧) دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض.

٥. البيضاوي، أبو الخير ناصر الدين عبد الله الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١٩٨٢) دار الفكر، بيروت.

٦. الجمل، سليمان بن عمر؛ الفتوحات الإلهية (بلا تاريخ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت

٧. الحاكم، محمد بن عبد الله؛ المستدرك على الصحيحين (بلا تاريخ)، دار المعرفة، بيروت.

٨. أبو حيان، محمد بن يوسف؛ البحر المحيط (١٩٨٣) دار الفكر، بيروت.

٩. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمّد، المقدّمة (بلا تـــاريخ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٠. داوُد، عبد الأحد؛ محمّد في الكتاب المقدّس ، ترجمـــة فهمـــي شمّا(١٩٨٥) رئاسة المحاكم الشرعية، قطر.
١١. الرازي، محمّد بن عمر؛ مفاتيح الغيب، (١٩٨١) دار المعرفة، بيروت.
١٢. رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم، (بـــلا تـــاريخ)دار المعرفة، بيروت.
١٣. زرزور، عدنان؛ بين مفهوم المعجزة وإعجاز القرآن، حوليـــة كلية الشريعة، العدد ١٧ لسنة ١٤٢٠هـــ. جامعة قطر.
١٤. الزيدي، أحمد بن الحسين؛ إثبات نبوّة النبي، تحقيـــق خليـــل الحاج(بلا تاريخ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٥. الطبري، على بن ربّن ؛ الدين والدولة في إثبات نبوّة النبـــيّ محمّد (١٩٨٢) دار الآفاق الجديدة، بيروت.
١٦. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القـــرآن (١٩٨٠) دار المعرفة، بيروت.
١٧. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير (١٩٧٢) الـــدار التونسية للنشر، تونس.

١٨. ابن عطية الأندلسي، عبد الحقّ بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق الرحالي الفاروق وآخرون (١٣٩٨هـ) قطر، الدوحة

١٩. العمادي، محمد بن محمد ؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (بلا تاريخ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٠. القاسمي، محمد جمال الدين؛ محاسن التأويل (١٩٧٨) دار الفكر، بيروت.

١٩. القرطبي، محمد بن أحمد؛ الجامع لأحكام القرآن،(بلا تاريخ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٠. ابن نبي، مالك؛ الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين(١٩٨١) دار الفكر ، بيروت.

٢١. النورسي، سعيد ميرزا ، صيقل الإسلام ، تحقيق إحسان الصالحي (١٩٩٥) سوزلر للنشر، إستانبول.

٢٢. النورسي، سعيد ميرزا؛ المكتوبات ، ترجمة إحسان الصالحي (١٩٩٢)، سوزلر للنشر، إستانبول.

٢٣. النيسابوري، مسلم بن الحجاج ، الجامع الصحيح ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي(بلا تاريخ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٤. الكتاب المقدّس: سفر التثنية، الإصحاح الثامن عشر، والإصحاح الرابع والثلاثون.